رحلتي إلى أمريكا

وليد رباح

الكتاب : رحلتي إلى أمريكا (رواية)

المؤلف : وليد رباح

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٧

رقم الإيداع : ٧٦٦٤ / ٢٠١٧

الترقيم الدولي : I.S.B.N : 978 - 977 - 493 - 270 - 0

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٢٧ ش الثلاثين. برج الشانزليزيه . زهراء المعادي. القاهرة

ت فاكس : ٢٧٢٣٨٠٠٤ (٠٢) ، ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : ياسمين عكاشة



رحلتي إلى أمريكا

رواية

وليد رباح

(١)

مطار كنيدي في نيويورك – عام ١٩٨٧...

كان في جيبي بعض دولارات ظننت أنني سأشتري أمريكا بها ، فإذا بها لا تساوي شيئًا ، كنتُ قد استدنتها من أخي فوزي يرحمه الله قبل قدومي... خرجت من المطار متباهيًا ألبس بدلة زاهية مع ربطة عنق مزركشة... كنتُ شابًّا ، والطريق أمامي مبهج وموحش في الوقت نفسه... هذه أمريكا التي كنت أحلم أن تُلحقني بابني خالد الذي سبقني إليها بسنوات كي يتخرَّج منها مهندسًا ، ولكنه يسكن ولاية أخرى بعيدة لا أستطيع الوصول إليها لغلاء تذاكر الطائرات.

نظرتُ إلى الأضواء حولي ، والبحر الواسع من النور الذي يضيء بالبهجة ليلاً ، لم أستطع رؤية النجوم عندما نظرتُ إلى السماء ، فقد كانت أضواء الأرض أبهى وأحلى وأجمل من كل بقعة في السماء... هكذا ظننت أنني سأفعل الأعاجيب في هذا البلد الذي لا أعرف فيه أحدًا سوى أخي (غازي) الذي كنت أعرف عنوان عمله ، وقد افتتح بقالة واسعة كبيرة – كما قيل لي – من جهده الذي بناه بالعرق والدموع ، ولا شيء غير ذلك.

اتجهتُ إلى سيارة أُجرة وسألتُ السائقَ بإنكليزية مكسرة الحروف كأجنحة طائر أصيب بالكساح : أريد أن أذهب إلى نيوجرسي؛ وتحديدًا مدينة باترسون... نظر إليَّ السائق واستفاض في رؤية بدلتي الجديدة وربطة عنقي الزاهية ، وقال : خمسون دولارًا... تحسست جيبي فإذا فيه خمسة وأربعون دولارًا فقط... قلتُ للسائق : ألا يكفي خمسة وأربعون ؟ فلم يجبني ، بل أشاح بوجهه عني وأخذ يحدِّث زبونًا آخر... سألتُ أحد المارَّة : هل مدينة باترسون في نيوجرسي بعيدة من هنا ؟... قال : ربما خمسة وأربعين ميلاً... قلتُ في نفسي : إنها بعدد النقود التي في جيبي.

لم يكن معي حقيبة سفر أو بعض الملابس، كنتُ أضع على كتفي حقيبة صغيرة الحجم تحوي ملابسي الداخلية وكتابًا قرأته أثناء رحلة الطائرة من عَمَّان إلى أمريكا ، إضافة إلى دفتر أسجِّل فيه ما يصادفني وبعض الأقلام ... لم تكن الحافلات تسير من المطار إلى نيوجرسي كما هي اليوم ، قلتُ في نفسي : إذا كانت مدينة باترسون على هذا البُعد فيمكنني إن سرتُ إليها ماشيًا أن أصل صباح الغد... كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساءً...

وهكذا بدأتُ الرحلة إلى مدينة باترسون سائرًا على قدمي ليلاً.

في الطريق إلى مبتغاي كنت أغنِّي ، السيارات تمرُّ عن شمالي مسرعة كأنها صواريخ في ليلة مبهجة، كنت أقرأ اليافطات على جوانب الطريق لأصل إلى نيوجرسي. سرت ما يقرب من خمسة أميال حتى تعبتْ قدماي وقرَّرت أن أجلس على حجر على جانب الطريق مشيرًا إلى الأميال والاتجاه... كان الصيف حارًّا، والعرق يتصبب من جبهتي نتيجة الجهد الذي بذلته في سيري... كنتُ أشير إلى السيارات التي تمرُّ علَّ سائق إحداها يقف ويوصلني بالمجان كما نفعل في بلادنا، ولكنهم كانوا يعزفون عني وعندما يقتربون مني تزداد سرعتهم، ولم أكن أعلم أن السائقين يخافون من رؤية الغرباء وخاصة في الليل؛ فلا يتوقفون.

نهضتُ على قدمي وسرتُ ثانيةً، ولكن التعب أصابني بعد ميلٍ واحدٍ من السير في الطريق الموحش؛ فجلستُ ثانيةً على جانب من الطريق... نظرت فإذا أضواء سيارة تبرق من بعيد تضيء بالأزرق والأحمر ظننتُ أنها سيارة إسعاف، وعن بُعد تباطأت السيارة حتى وصلتني، فإذا بها سيارة شرطة من مدينة نيويورك، قرأتُ ذلك على مقدمتها عندما وقفت إلى جانبي... تجاهلتُ سيارة الشرطة وسرتُ قليلاً، فإذا بها تسبقني وتقف إلى جانب الطريق أمامي... نزل شرطيٌّ من السيارة وسألني، ولكني لم أفهم

السؤال ، فطلبتُ إليه ببطء أن يتحدث بكلمات أفهمها... لم يفهمني ، ولكني التقطت بعض الكلمات التي توحي أنه يسألني لماذا أسير في هذا الطريق وحيدًا في الليل... قلت له : أريد الذهاب إلى نيوجرسي ولا نقود معي ، جئتُ توًا إلى أمريكا ولا أحمل النقود الكافية لسيارة أُجرة... فهمني وضحك قائلاً : إذن أنت ذاهبٌ إلى نيوجرسي مشيًا على قدميك... قلتُ : نعم... قال : أتعرف كم المسافة بين المطار ونيوجرسي... قلتُ له ببطء : قيل لي إنها خمسة وأربعون ميلاً... قال مبتسمًا بعد أن لمعت أضواء سيارته على بدلتي الجديدة وربطة عنقي الزاهية : وفقك الله ، أتعرف متى تصل ؟ قلت : ربما في الصباح... قال وقد فهمته: هذا إن كنت تسير بسرعة واحدة دون توقف ، بعد أميال ستتعب وتصل ليس صباح الغد ؛ بل صباح اليوم الذي يليه... لم أستطع أن أجيبه... فتركني وانصرف بعد أن قال لي : وفقك الرب... وقد فهمت هذه الجملة بعد ما يقرب من سنتين من وصولي إلى نيوجرسي.

واصلتُ سيري، فإذا التعب يرهقني بعد ما يقرب من نصف ميل آخر... جلست ، ثم تابعت ، ومن ثم جلست ، ثانية وثالثة ورابعة... كانت المسافة أمامي بعيدة ، أسير والتعب يصيبني بعد

جهد ، أكثر من ذلك فقد أصابني النعاس فبتُّ أتطوح في سيري... وأخيرًا ، رأيتُ يافطة كبيرة على جانب الطريق فجلست إلى جانبها متعبًا.

كان جلوسي إلى جانب الطريق في انعطاف بحيث تراني كل السيارات التي تمر أمامي بعد تخفيف سرعتها ، كنت أنهضُ على قدمي حينًا وأجلسُ حينًا آخر ، ولم أنتبه لإحدى السيارات التي توقفتْ بعد أن اجتازتني بمسافة نصف ميل على الأقل على جانب من الطريق ، فأخذتْ السيارة تسير عكسيًا إلى حيث أقف... قلتُ ؛ ربما كانت سيارة شرطة أخرى... وبعد جهد وصلتني السيارة ووقفت إلى جانبي ، نظرتُ إلى داخلها فإذا امرأة جميلة ترتدي ثيابًا ظننت أنها أميرة لحسن مظهرها وجمالها... قالت بصوت أشبه بتغريد العصافير : ما الذي تفعله هنا ، هل أصابك مكروه؟... قلتُ بأدبٍ جمٍّ: لا يا سيدتي، إني ذاهبٌ إلى نيوجرسي مشيًا على قدمي لعدم وجود نقود معي... قالت : هل أنت مجنون ؟... قلتُ لها مداعبًا قدر ما افهم من اللغة : كنتُ مجنونًا ولكني عندما رأيتك رجع لي عقلي... ضحكتْ بجذل وقالت : إذن، اصعد إلى سيارتي، فأنا ذاهبة إلى نيوجرسي...

وهكذا صعدت إلى السيارة وجلست إلى جانبها.

(٢)

صعدت إلى السيارة التي توقفت بجانبي على طريق مطار كنيدي/ نيوجرسي... كانت المرأة خلال الطريق تحدِّثني عن نفسها... كانت في حدود الثالثة والأربعين ... ولدها يعمل في الجيش الأمريكي ولا يأتي البيت إلا كل شهر مرة... أرملة ، تعيش وحيدة ، وهي بحاجة إلى من يؤنس وحدها... قلت في نفسي : هذا أول القطر ومن ثم تمطر...

غير أن ظنوني كانت خائبة...

قالت : سأذهب بك إلى العنوان الذي تحمله ، وبعد الوصول إلى أخيك فأنت في أمان... قلت لها : يا سيدتي ، إن الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ليلاً ، ولا يعقل أن أجد أخي في بقالته في هذا الليل... أوصليني فقط إلى مدينة باترسون ، وهناك أتدَّبر أمري... قالت : فليكن.

وصلنا إلى العنوان فإذا البقالة مقفلة... الشوارع خالية إلا من البعض ممن يقفون على قارعة الطريق في هذا الصيف القائظ ، يدخنون ، يضحكون ، يتمازحون. قالت المرأة فزعة : لن أتركك

هنا ، هذه منطقة خطرة ، ما رأيك أن نذهب إلى الشارع الرئيس في مدينة باترسون ، أعرف أن هناك محلات عربية تفتح ليلاً...
قلت : ليس لي خيار... وسارت بنا إلى (الشارع الرئيس).

بحثنا عن محلات عربية تفتح ليلاً فلم نجد... الشارع شبه خال ، بعض نساء يجلسن أمام المكتبة العامة... قالت : أولئك من بائعات الهوى، لا تقترب من هذا المكان... أوقفت سيارتها قليلاً وتناولت سيجارة من علبتها وأعطتنيها... قلت : أتعرفين ، أنا مدخِّن شره ، ولكني مع طول المسافة والتعب لم أُدخِّن حتى سيجارة واحدة... قالت : هل أنت جائع ؟ قلت نعم ، ولكن لا مطاعم تفتح في هذا الليل... قالت بعد تفكير : ما رأيك أن تأتي إلى بيتي فهناك نجد الطعام ، تأكل ، ومن ثم إذا ما أردت أن تعود سأعيدك إلى هذا المكان ، أو ما رأيك أن نجد لك فندقًا رخيصًا تقضي الليل فيه... قلت : إنها فكرة حسنة... قالت : هل معك من النقود ما يكفي؟... قلت : خمسة وأربعون دولارًا... قالت : إذن فلتوفِّر هذا المبلغ لكي تذهب إلى أخيك في بقالته عند الصباح ، وتترك باقي النقود لمصروفك... ثم فتحت شنطتها وقالت لي متأثرة: هذه عشرون دولارًا يمكن أن تزيد من نقودك، خذها... قلت : لا ، أرجوكِ، أستطيع أن أتدَّبر أمري في الصباح

عندما أجد أخي... قالت: افترض أنك لم تجده... ثم مدت يدها إلى حقيبة يدها وأخرجت بطاقة (كرت) مع العشرين دولارًا وقالت هذا هو عنواني ورقم هاتفي... نظرت إلى الكرت مليًّا وحاولت قراءته، فإذا بها مديرة لفرع البريد في مدينة (....) أضافت: إذا وجدت فرصة للاتصال بي فافعل... ثم استدركت: ولكني لن أتركك في هذا الليل، يبدو أنك إنسان طيب، لن أبرح مكاني حتى أؤمنك، هذه مناطق خطرة، ربما أصابك مكروه، هذه المنطقة مليئة بالمتعاطين للمخدرات، فلا آمن أن يتعرض لك أحدهم وأنت وحيد... قلت: إذن ما العمل؟...

صمتنا سويا...

أعدتُ إليها العشرين دولارًا ووضعت الكرت في جيبي...

دام صمتنا لمدة قصيرة فقالت: يجب أن نذهب إلى البيت، وهناك نتحدث وتأكل، فإن رغبت في العودة أعيدك إلى هذا المكان، وإلا... علينا أن نفكِّر ماذا يمكن أن نفعل... قلت: كما تريدين.

ذهبنا إلى البيت في (ناتلي)... كانت الساعة قد بلغت الواحدة بعد منتصف الليل...شقة متواضعة مرتبة ترتيبًا مذهلاً، زهور هنا وديكورات جميلة هناك. فتحت الثلاجة فإذا بها طعام عربي؛

فول ، حمص ، فلافل... قلت لها : هل أنت من أصل عربي ؟ قالت: كلا ، أنا من أصول بريطانية ، وإنما كان زوجي عربيًا ؛ رحمه الله ؛ وقد تعودت على الطعام العربي ، أمضيت معه عشر سنوات ، وكان سوري الجنسية ، وقد رحل قبل خمس سنوات ، وأنا حزينة على فقده... قلت : الأعمار بيد الله...
وهكذا أكلنا سويًا.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل : سألتني ،: هل معك رخصة سياقة دولية؟ قلت : نعم... قالت ، إذن تنام في الصالة الليلة ، فأنا تعبة ، وعند الصباح توصِّلني إلى عملي ومن ثم تعود بالسيارة... قلت : ولكني لا أعرف الطرقات... قالت : حسنًا ، إذن أذهب إلى عملي في الصباح وأعود عند الساعة الرابعة بعد الظهر ، أنت تعب ، يجب أن ترتاح هنا ، وعندما آتي آخذك إلى أخيك... فكرت قليلاً وقلت : فليكن...
وهكذا أفقتُ ظُهرًا ووجدت نفسي في شقتها وحيدًا.

(٣)

أفقتُ عند الظهر ، البيت ساكنٌ ليس فيه من حركة ، أدركت أني وحيدٌ فيه... تساءلت : يا إلهي ، كيف أمِنتني تلك المرأة على بيتها مع أنها لم تعرفني سوى لبضع سويعات...

شعرتُ بالجوع ففتحت الثلاجة ، لكني رأيت أن لا ألمس شيئًا حتى تأتي ، فلا يجوز للضيف أن يتصرف البيت إلا بأمر من المضيف... وهكذا ظللت أدور في الشقة وحيدًا حتى الساعة الرابعة والنصف بعض الظهر ، والجوع يقرص معدتي.

أخيرًا جاءت (.....) وهي تحمل أكياسًا أدركت أنها كانت تحوي طعاما... قالت : هل نمتَ جيدًا؟... قلت : يا سيدتي فيكِ شيء يبهرني ، كيف أمنتني على بيتك وأنتِ لا تعرفينني... ابتسمت وقالت مثلاً عربيًا علمتُ فيما بعد أنها حفظته عن زوجها السوري المتوفي : الرسالة تُقرأ من عنوانها... ابتسمتُ أيضًا.

قالت : سأعدّ المائدة كي نتناول الطعام ، ثم استدركت : هل أكلتَ شيئًا... قلت : كلا يا سيدتي ، فلا يجوز أن ألمس شيئًا إلا

بإذنك... قالت : ما هذا الأدب يا رجل؟ ، الثلاجة ملآى بالمأكولات ، وأعرف أنك جائع... قلت : هذا صحيح ، ولكني أعزف عن أن آكل إلا وأنتِ هنا.

سرحت وقالت : هل أنت متزوج؟... قلت : نعم ، تركتُ خلفي زوجة وتسعة أطفال... قالت : يا إلهي ، تسعة؟!...ثم استتبعت ضاحكة : كلهم أطفالك ؟... قلت : لم أشترِ أحدًا منهم من سوق الخضار... ضحكت : أنتم تحبون الأطفال عكس ما يدعيه البعض هنا ، وإلا لما خلَّفت هذا العدد ، زوجي المرحوم كان له سبعة إخوة كلهم ذكور ، وقد حضر أحدهم إلى هنا ولكن الحياة لم تعجبه فغادر عائدًا إلى سوريا ، وبعد ذلك بعدة شهور فقدتُ زوجي يرحمه الله...

كانت تتحدث وهي تعدُّ مائدة الطعام ، وعندما فردتْ ما في الأكياس وجدتُ الحمص والتبولة والفلافل والفول معبأة في أكياس بلاستيكية... وهكذا ذهب جوعي إلى غير رجعة حتى الوجبة القادمة.

قالت بعد أن التقطت سيجارتها وأعطتني إحداها ،: لنذهب إلى أخيك... قلت : هيا.

توقفتْ بسيارها قُرب دكان صغير في مدينة ناتلي ، قالت : ابقَ هنا وسأعود حالاً... دخلت فإذا بها تأتيني بعلبة من السجاير من النوع الذي كنت أدخنه في الوطن ، ناولتني العلبة... فقلتُ لها : لكني أمتلك النقود ، سأشتريها لنفسي... قالت : هي هدية لك.

قادت سيارها إلى دكان أخي في وسط مدينة باترسون... دخلنا ، فإذا شخص غريب يقف خلف الميزان والحاسب تبين أنه أسباني ، فسألته عن أخي... فقال : لقد اشتريت هذا المحل منذ ستة شهور من رجل عربي ، ولا أدري عنوانه... سألته بعض الأسئلة ، فكان جوابه سلبيًا.

جلستُ إلى كرسي في المحل ساهمًا ومنذهلاً ... يا إلهي ، هل حظي سيئ إلى هذه الدرجه ؟... جلست إلى جانبي وقالت : ما العمل الآن؟... قلت : لا أدري ، هذا فأل ليس حسنًا... قالت : ما الذي ستفعله؟... سكتُ... قالت : قلْ شيئًا... قلت : شكرًا لكِ يا سيدتي ، فقد استضفتِني في بيتك وأنت لا تعرفينني... قالت : لا تشكرني ، بل أعطني جوابًا عما ستفعله... قلت : أوصليني إلى الشارع الرئيس في المنطقة العربية ، وهناك سوف أتدَّبر أمري... قالت : كما تريد.

كان (المين ستريت) يحوي أربع محلات عربية فقط: محل النوري، ولم يكن بالسعة التي نراها اليوم... محلات الفتال... مطعم صغير تديره امرأة لبنانية... ومطعم آخر لامرأة كبيرة السن لبنانية أصلاً... وربما كان هنالك بعض محلات لا أعرف أصحابها... قالت: هذا هو الشارع الرئيس في باترسون، ما الذي ستفعله؟ قلت: سأسأل بعض أصحاب المحلات علَّهم يعرفون أخي... قالت: سأرافقك... لم يستدل أحدهم على اسم أخي وعنوانه، وكما علمتُ فيما سيأتي أن أخي يعمل بجد وجهد ولا يختلط مع العرب، بل كل همه عمله وتربية أطفاله، وتبين بعد أشهر أنه يسكن مدينة كليفتون... ولكن مهلاً... لم ألتقِ مع أخي بعد... ومضت شهور قبل أن أستدل عليه، في موقف لا يخطر على بال.

جلستُ إلى مقعد في حديقة صغيرة على المين ستريت (هي أمام محلات النوري والبركة حاليًا) سمعتُ رجلين يتحدثان العربية وهما سائران... نهضت إليهما وأسرعت خلفهما وقلت: يا عم، مهلاً، أريد أن أسالك سؤالاً... نظر الاثنان خلفهما وقال أحدهما: هل أنت عربي؟... قلتُ: نعم، هل تعرفون اسم (غازي رباح) وأين يسكن؟... ضحك أحدهما وقال: لم نسمع بهذا الاسم فيما سبق، هل أنت جديد هنا؟... قلت: قد أتيت

قبل يومين... قال: أعانك الله، ابحث جيدًا عنه وإذا احتجت إلى مساعدة فأنا أسكن هذا البيت ، وأشار إلى بيت على المين ستريت.

ومن ثم عدت إلى جلستي أمام الحديقة الصغيرة... جلستْ إلى جانبي وقالت: ما الذي حدث بينكم؟... قلت: إنهما لا يعرفان أخي... قالت: الجو خانق، دعنا نذهب إلى مكان آخر فيه بعض الظل... انتقلتْ وجلست إلى الحشائش في الحديقة الصغيرة... جلستُ إلى جانبها... نظرتْ إلى وجهي، ورأيتُ دمعة تحاول أن تخرج من عينيها مما أبكاني... قالت: لا تيأس، سوف نعثر على أخيك، ومنذ الآن سأظل معك أو تظل معي حتى نعثر عليه... نهضنا سويًا ، قالت : لا مكان لك سوى بيتي ، فلنذهب... وهكذا كان.

(٤)

أمضيت في بيتها عدة أيام لا أذكر عددها... وفي حديثنا الليلي قالت : بعد أيام سوف يأتي ابني لزيارتي، إنه في التاسعة عشرة، اسمه ريتشارد، لطيف المعشر ذكي، يعمل في الجيش الأمريكي بمنطقة بعيدة، وهو يزورني كل شهر مرة... قلت : يا سيدتي، أخشى أن يفور دمه لوجودي هنا... ضحكت وقالت : لا عليك، سأتدبر الأمر... قلت : هل هو ولدك من الرجل السوري... قالت : لا، كنت متزوجة قبل ذلك وأنجبته.

كنتُ أنام في غرفة ابنها، وكنت أضع حذائي وجواربي كعادتي على باب الغرفة التي أنام فيها، ولم يخطر ببالي أن ذلك الحذاء سوف يدلُّ ريتشارد على وجود رجل في غرفته، أما هي فقد كانت تقضي معظم الليل في غرفة نومها... وكنت أغطُّ في نوم عميق عندما أضع رأسي على المخدة، ولكني كعادتي أصحو مبكرًا عند الساعة الخامسة صباحًا...

أفقتُ في صباح يومٍ وقد كانت نائمة، واتتني الفرصة لكي أذهب إلى المطبخ وأجهِّز كأسًا من الشاي في الصباح قبل إشعال

السيجارة ، ثم أخذتُ الشاي معي إلى الغرفة وأغلقتُ بابها... وفي غضون دقائق سمعت الباب الخارجي للشقة يُفتح ، وخطواتٍ تمشي في صالون البيت ، ثم توقفت الخطوات واقتربت من غرفتي، غير أن الخطوات ابتعدت قليلاً حسب ما سمعت ذلك ، ثم أُغلق الباب الرئيس ثانيةً ولم أعد أسمعها... فتحتُ باب الغرفة التي أنام فيها ونظرتُ إلى الصالون ، لم ألحظ شيئًا... وعند عودتي إلى الغرفة وجدتُ أن حذائي قد ابتعدت فردته عن الأخرى بعد إن كانتا متلاصقتين... لم يخطر ببالي أن من جاء ولدها ، ظننته لصًّا دخل وخرج في صمت...

ذهبتُ إلى غرفتها وطرقت بابها عدة طرقات ولم أسمع جوابًا... وهكذا ولجت إلى غرفتها.. يا إلهي ، هذه ليست امرأة عادية ، قد تكون ملاكًا ، ما هذا (اللحم الأبيض) المكتنِز بالعطاء ؟ ما هذا الشعر الأشقر الطويل الذي يغطي وجهها وصدرها معًا ؟ ما هذا الفستان الذي لا تبين ملامحه ويظهر ما تحته من جسد يضيء حتى في عتمة الليل ؟... كان الغطاء منحسرًا عن جسدها وتبين فخذاها متدرجة إلى منطقة (الخطر) ، ما هذا الضوء الأحمر الذي يعطي جسدها لونًا كأنه قادمٌ من الجنة ؛ إنه لونٌ يتشكّل مع لون الجسد فيعطيها جمالاً لا يمكن إلا أن تقف أمامه مذهولاً...

قبل أن أسترسل ، حدَّثتُ نفسي : لعن الله الشيطان ، ماذا لو كانت ابنتي أو اختي؟ ، إن استفاقت وأنا أنظر إليها هكذا سوف تُصاب بالجنون... لكن غبائي دفعني لأن أغطي جسدها بالغطاء الذي كان منحسرًا عنها ، فلمسته بشيء من الخفة وسحبته نحو جسدها لأغطيها... استفاقت فجأة فزعة... وعندما رأتني قالت والنوم يغالبها : أهذا أنت ؟ ماذا تفعل هنا ؟... قلت : جئت لإخبارك أن خطوات كانت في البيت منذ قليل... ابتسمت وذهب الذعر عنها وقالت : هو ريتشارد ، هل خرج ثانية ؟... قلت : نعم... قالت : اجلس إلى الكرسي هنا... قلت : ارتدِ ملابسك أولاً وسأعدُّ لكِ فنجانًا من القهوة... قالت وهي مبتسمة : لا بأس.

ذهبتُ إلى المطبخ... وفي غضون ذلك سمعتُ جرس الهاتف ، وسمعتها تتحدث بصوت متحشرج ، أسمع كلمة ولا أسمع الأخرى... لم أُلق بالاً ، ولكني توترتُ قليلاً ، من الذي يتحدث معها في مثل هذه الساعة؟... نظرتُ إلى ساعة يدي فإذا بها السادسة صباحًا... أخيرًا قرعتُ بابها بعد أن فرغتْ من حديثها بالهاتف... قالت : تفضل... دخلت... قالت : اتصل بي ريتشارد وقد ظن أن رجلاً في حياتي فغادر مسرعًا ، أفهمته الحقيقة ،

فضحك وقال : أنت هكذا يا أمي تحبين الغرباء ، ماذا لو كان لصًّا فقام بسرقتك... قلت له : لا شيء عندي يُسرق... قال : سآتي إليك بعد الظهر فقد ذهبت إلى منْزل خطيبتي... ثم ابتسمتْ ، لكنها بعد لأيٍ ضحكتْ بصوت مسموع وقالت من خلال ضحكتها : لقد ظنَّ أنني اتخذتُ حبيبًا فهرب مسرعًا... ضحكنا سويا...

شربنا القهوة معًا... قالت : اليوم هو السبت ، أنا لا أعمل في هذا اليوم ، ما هو برنامجك اليومي ؟... قلتُ : أنت التي تُعدِّين برنامجي ، فأنا لا أعرف شيئًا هنا... قالت : ما الذي تحب أن تراه في أمريكا ؟... قلت : أي شيء ترغبين برؤيته... قالت : ما رأيك أن نذهب في رحلة كي أعرِّفك بالُمدن في نيوجرسي ؟... قلت : لا أرغب بذلك... ثم تابعتْ : هل نذهب إلى نيويورك ؟.. قلتُ : هل هناك متحف في نيويورك ،... قالت : إنه الأحسن في هذا العالم ، سآخذك إليه.

كنتُ قد اشتريتُ عدة علب من السجائر ، تفقدتُ جيبي لأرى المبلغ المتبقي فيه ، لكني عثرت على مائة دولار قطعة واحدة مع النقود ، قلت منفعلاً : ما الذي تفعلينه ؟ أنت التي وضعت النقود في جيبي... قالت ضاحكة : وما العيب في ذلك ، عندما تجد عملاً

تعيدها إليَّ ثانية مع الفوائد... قلت: لا أريدها... قالت: لا تكن غبيًا، احتفظ بها فإن استلزم ذلك صرفها فافعل، وإلا تعيدها إليَّ ثانية... قلت وقد بدا على وجهي التجهم كما قالت: ماذا لو لم ألقكِ هنا؟ ما الذي كان سيجري؟... قالت: اسمع، أنا امرأة مؤمنة، أذهب إلى الكنيسة دومًا، وأحضر العظة، وأعرف أن الربَّ ييِّسر لكل إنسانٍ ما كتب له، لا تفكِّر في الماضي كثيرًا، فكِّر في مستقبلك في هذا البلد... قلت: وأين هو المستقبل؟، أخي لم أعثر عليه، النقود في جيبي لا تكفي لسجائري، طعامي آكله من مطبخك... قالت ضاحكة: دعك من هذا، قلتَ لي يومًا إنك تحمل رخصة دولية، سأرى سياقتك للسيارة أولاً، ومن ثم تقودها وأنا بجانبك إلى نيويورك... قلت: إني سائقٌ ماهر، أسوق منذ سنوات طويلة... قالت: سأكون عونًا لك وأنت تسوق السيارة، دعنا نجرِّب...

بعد لأيٍ قالت لي: قُدْ السيارة أولاً في الموقف أمام بيتنا لأرى مدى معرفتك بالقيادة، در فيه دورات عديدة لأطمئن على ذلك... قلت لها: هيا...

سقت السيارة، فاطمأنت، وقالت: لنذهب إلى نيويورك... قلت: دليني على الطريق... ضحكت عن أسنان لؤلؤية وقالت:

هيا بنا ، لكن لا تسرع ، فأنا لا أحب السرعة... قلت لها : على رسلك، أنا لا أحبها أيضًا...

وهكذا ذهبنا إلى نيويورك.

(٥)

تحدثنا طويلاً أثناء رحلتنا ، داعبتني بشيءٍ من الخشونة فقرصتني في جانبي ، حقيقة تألمت ، قلت لها مازحا : أهذا هزار أم تقطيع لحوم ؟ ، هل كنتِ تعملين عند جزار في بلادنا ؟... ضحكتْ وقالت ففاجأتني : أتعرف "أبو الهول"؟.. قلت : تعنين "أبو الهول" المصري ؟... قالت : بل أبو الهول العربي : قلت : تتحدثين أيضًا بالقومية ، يا لكِ من امرأة... ثم أضفت : ما مدى معرفتك به ؟.. قالت : عندما تزوجتُ الرجل السوري يرحمه الله ؛ كان يحدِّثني دائمًا عن بلاد العرب ، يقول لي : لستُ من سوريا فقط ، سوريا جزء صغير من الوطن العربي الكبير ، إن وطني يناهز أمريكا في سعته ، كان رجلاً عظيمًا يعتز بوطنه... قلت في نفسي : يا الله ما أجمل سوريا والسوريين... قالت : أبديتُ رغبتي بأن أسافر إلى بلاد العرب لأرى بعض الأمكنة ، وقع نظرى على مجلة أمريكية فيها تحقيق رائع عن أبي الهول ، وعندما قلتُ لزوجي أريد الذهاب إلى أبي الهول ، قال : يبدو أن تكشيرته تعجبك ؟ قلت وما حكاية تكشيرته ، قال : سأحدِّثك عنها فيما بعد أشعر بألم في رأسي ، ولم يتسنْ له أن يحدثني ، فقد ذهب إلى رحمة الله بعد

أسبوعين نتيجة إصابته بالسرطان، وقد سقتُها الآن لأني أراك مثل أبي الهول، يا رجل، ألا ترى أن الجو جميل والسماء صافيه، ابتسم، هل أصابتك العدوى من أبي الهول؟... قلت: إن تكشيرة أبي الهول بدعة، فهو يستقبل زواره بالكثير من البشاشة... قالت: دعنا من ذلك، قد وصلنا إلى نيويورك.

دُرنا في شوارع المدينة بعض الوقت لنحصل على موقف للسيارة فقد كان موقف المتحف مليئًا بالسيارات عن أخره... قالت: ما زلنا في بداية النهار، وأنا جائعة. أضافت: هل أنت جائع؟... قلت: نأخذ شطيرة من أحد المطاعم ونأكلها في الطريق.. قالت: لا، بل نجلس إلى مطعم أعرفه... قلتُ في سري: يا ويلي، أنا رجل شرقي لا أحتمل ان تدفع عني امرأة ثمن غدائي... قالت: بماذا تفكِّر؟... قلت: دعينا من الغداء ولنذهب إلى موقف عام لنرى المتحف... قالت وقد نظرت إليَّ بشيء من الغرابة قائلة: صدقني، أعرف بماذا تفكِّر، فالرجل الشرقي فيه من النخوة ما نفتقده هنا، اسمعني وأقولها للمرة الأخيرة: كنتُ بحاجة إلى صديق، لا يهمني إن كان غنيًا أو فقيرًا، جميلاً أو قبيحًا، فقد كانت وحدتي تقتلني، ثم جئت أنت من الغيب، فخلال الأيام الماضية رأيت فيك الصديق الذي أنشده، فلا تجعل الغضب

يتملكني، إن دفعت أنا أم دفعت أنت ، فهي رفقة جميلة أقدِّرها.

لم أتمالك نفسي ، سقطت دمعة من عيني مسرعة كأنها تسقط في قاع بئر عميقة... ناولتني محرمة ورقية وقالت وهي تغالب اختناقها بالدمع : يا وليد ، لم تمكث إلى جانبي سوى أسبوع واحد، لكني أشعر بأني أعرفك منذ أن وُلِدت... قلت : أهذا إطراء أم غزل؟... قالت: سمِّه كما شئت.

دلفنا إلى مطعم لا يبعد كثيرًا عن المتحف، كان موقف السيارات فيه ينقص بعض الأمكنة... قلتُ لها: أنا لستُ جائعًا، إذا أردتِ أن تآكلي فسأنتظرك هنا في السيارة... قالت وقد ظهر الغضب على وجهها : هل أنت إنسان كامل أم فيك بعض النقص؟ يا رجل أنت تحيِّرني، سوف تأكل رغمًا عنك، أعرف أنك جائع. وهكذا سرنا سويًا إلى باب المطعم أُقدِّم خطوة وأتراجع أخرى.

سرحت بعيدًا ونحن نأكل، ترى هل أولادي يأكلون أم جائعون؟ تركت لهم عند ذهابي بعض النقود تكفيهم لشهر واحد فقط... قالت فجأة: هل تريد أن تعمل؟... قلت على الفور: كيف وأنا لا أعرف أحدًا ؟... قالت: تبسّم يا رجل، إن لي علاقات هنا لا تحدها حدود، أستطيع أن أجد لك عملاً خلال أربع وعشرين

ساعة... قلت : أستطيع أن أعمل حتى في الزبالة ، ورائي أطفال يريدون العيش... قالت ضاحكة : أتعرف أن عُمَّال الزبالة يتقاضون راتبًا عاليًا ربما كان أكثر قليلاً مما نتقاضى... قلتُ : إذا كان ذلك كذلك ؛ فأنا منذ اليوم عامل في الزبالة... ضحكنا سويًا... قالت : بل ستعمل في مكانٍ ترضى عنه ، ثم تابعتْ : أعرف أن إنكليزيتك ليست على ما يرام ، أستطيع أن أفهمك وتفهم الآخرين عندما تتحدث ، ولكنني منذ اليوم سوف أقوم برعاية لغتك ، فقد كنت مُعلِّمة في صباي... قلت : ولكنك ما زلت صبية... قالت : لا تجاملني ، أنا في الأربعينات... قلت : أتعرفين ، أنت أكبر مني بسنة واحدة... قالت : أعرف ، فقد تحدثنا عندما كنا في طريقنا من المطار إلى نيوجرسي ، أتذكر؟... قلت : لم يمر وقت طويل لكي أنسى.

فتحتُ فمي دهشة عندما دلفنا إلى المتحف... يا إلهي ، ما هذه الفخامة ؟ ما هذا الجمال ؟... حدثتني طويلاً ونحن ننظر إلى اللوحات الرائعة، ولكني لم أفهم شيئًا ، كنتُ منشغلاً بما أرى... سرحتُ بعيدًا : لماذا لا متاحف عندنا بمثل هذه النظافة؟ هنا تسير على بلاط المتحف كأنما تخاف أن تقع في الماء لأنك عندما تنظر إلى أرضيته تظن أنك تسير على زجاج تخاف أن يتكسر.

أمضينا ساعتين في المتحف... ثم قالت لي : هل سبق وأن رأيت مسرحية أمريكية ؟ ، أشارت بيدها : هذا شارع برودواي ، إن المسارح فيه أكثر من أن تُحصى ، ما رأيك لو ذهبنا إلى مسرحية تخفِّف عنك الآلام التي أراها على وجهك ؟... قلت : يا سيدتي ، حرام عليكِ ، أنت تعطينني أكثر مما استحق ، أرجوكِ ، دعينا نذهب من هنا.

قالت وقد فتحت فمها مندهشة : آه ، نسيت أن أسالك ، ماذا كنت تعمل في بلادك : قلتُ : صحافيًا وكاتبًا غير مشهور البتة... قالت : يا الله ، أأنا برفقة كاتب؛ وصحافي أيضًا؟... قلت بتواضع : هكذا يسمونني ، لكنني لم أجد وظيفة غيرها هناك... قالت: أتعرف ماذا يتقاضى الصحافي هنا؟... قلت : سمعت بذلك ولكني لا أعرف شيئًا عن هذه المهنة هنا... قالت : هل سمعت بـــ"النيويورك تايمز" ؟... قلت : بلى... قالت : إن فيها عامودًا يوميًا لصديق لي ، ربما لا يتعدى الألف كلمة ، إنه يتقاضى كل يوم ألفًا وخمسمائة دولار على بضع كلمات... فتحتُ فمي دهشة وقلت : أتعنين ثلاثين ألفًا في الشهر... قالت : وأكثر .. هذا عوضًا عن العروض التي تأتيه من صحف أخرى للكتابة فيها ، ولكنه يرفض إلا أن يظل في جريدته المفضلة... قلت : هل

أستطيع أن أعمل فرَّاشًا هناك؟... ضحكتْ وقالت : هل جرَّبت أن تكتب تجربتك الصحافية ؟... قلت : لي من الكتب أربعة نُشرت في العراق ومصر والأردن ولبنان... قالت : مرحى مرحى ، هل أحدها أو كلها باللغة الإنكليزية ؟... قلت : يا سيدتي ، أنت ترين أن لغتي الإنكليزية عرجاء... قالت : بل أستطيع أن أفهمك ، يجب أن تتعلم اللغة جيدًا ، ففي داخلك ثروة لا تُقدر بثمن.

سرحتُ بعيدًا وقلت في نفسي لنفسي : يا الله ، من هذه المرأة ؟ ومن الذي أرسلها في طريقي ؟. فكرَّتُ كثيرًا فاحترمتُ صمتي ، قلت لنفسي : عملتُ أول ما ابتدأت الكتابة في صحيفة أسبوعية في الأردن ، كنت أتقاضى عشرة دنانير أردنية شهريًا ، كانت في ذلك الوقت تكفي ، ولكنها كانت ملاليم نسبة إلى ما يتقاضاه الصحافي الأمريكي.

قالت : بماذا تفكِّر ؟... قلت على الفور : أريد أن أرى مبنى الأمم المتحدة... قالت : سأريك المبنى من الخارج... أتعرف أن الأمم المتحدة عبارة عن مبنى فقط ، إنني لا أؤمن بها ولا بقراراها ، إن أمريكا تسيطر عليها كُليًا... قلت مبتسمًا : مرحى ، مرحى... فضحكتْ ، وضحكتُ... ومن ثم توجهنا إلى نيوجرسي.

(٦)

أمضينا بعض الوقت في منْزلها... قالت لي بعد أن ظهر الضجر على وجهها : إن لي رفقة في بار قريب من هنا... ثم أضافت : هل تشرب؟ قلت لها : لم أذقه في حياتي... قالت : حتى البيرة؟... قلت : ولا حتى البيسي... ضحكت وتابعت : أنت محق ، فالصودا ضارة بالجسم... سرحتْ ثم تابعتْ : إذن رافقني إلى هناك لأعرِّفك بأصدقائي أولاً ، ولتشرب العصير ثانيًا بدلاً من المشروب الذي لا تحبه.

كان البار متسعًا بشكل لم أرَ مثله من قبل ، فيه بعض العجائز ينتشرن هنا وهناك ، فيه باحة للرقص يجتمع فيها بعض الشباب والشابات... اخترنا منضدة قريبة من الباحة... قالت : أي نوع من العصير تريد؟... قلت : لا يهمني النوع بقدر ما يهمني أن يكون شرابًا... قالت : هل تعزف عن الشراب المُسكِر لأن دينك يمنعك منه؟... قلت : كلا ، ولكني لا أطيقه أو أطيق رائحته... قالت : عصير البرتقال هل تحبه؟... قلت : نعم ، إنه المُفضَّل... قالت : سأذهب لأحضر لي مشروبًا ولك بعض العصير.

أجلتُ نظري في المكان... كان يعجُّ بالزوار والناس، كلٌّ يحمل كأسه، امرأة هنا تنتحي جانبًا مع شاب ويضحكان معًا، عجوز جلست وحيدة على منضدها وقد بدت حزينة، وعن بُعد لفتَ نظري شابٌ يلبس بدلة بيضاء زاهية وحوله أكثر من أربع فتيات يشربون معًا ويقدمون كؤوسهم كأنما هم في حفلة سعيدة، كان الشاب يلفظ بعض الكلمات بالعربية... قلتُ: يا إلهي، أهذا عربي؟... كان يتحدث الإنكليزية بلكنة عربية فعرفت أنه ليس أمريكيًا.

جاءت إليَّ بكأسٍ من العصير ومثله لها... قلت: ما هذا الذي تشربينه؟... قالت: بعض العصير كما طلبت، فلا يجوز لي أن أشرب الكحول وأنت لا تذوقها... قلت في نفسي: يا إلهي، مَنْ هذه المرأة؟... ثم قلت بصوتٍ كالفحيح: بل تذهبين ثانيةً وتأتين بما تحبين أن تشربي... قالت: ولكنك لا تحب رائحته... قلت: لا بأس عليكِ، لا اعتراض لدي... تركتْ كأس العصير وذهبت ثانية فاتت بكأس ملأى حتى حوافها... جلست وقالت مشيرة إلى الرجل ذي البدلة البيضاء: أتعرف "طوني عتال"؟... قلت: لم أسمع بهذا الاسم أبدًا... قالت وقد أشارت إلى الرجل: هذا رجل عربي من لبنان، إنه غني، يقال إنه يمتلك محطة للمحروقات

ومنْزلاً فخمًا، وهو يعمل في صُنع المطابخ وتصميمها في شركة أمريكية مشهورة، ويقال إنه يتقاضى على ذلك ألف دولار في الأسبوع، كل من في البار يعرفه، وفي كل أسبوع يأتي إلى هنا وتجتمع إليه الحسناوات يشربنَّ على حسابه... قلت: إنه رجل محظوظ... قالت: من يدري؟؟

جاءت امرأة جميلة في مثل سنها فوقفت وقالت لها: هذا صديقي وليد، ثم أضافت ضاحكة: عثرتُ عليه بالصدفة... مدَّتْ المرأة يدها وسلمت علي جذلة، ثم قالت: ماذا يعني اسمك؟... قلت: إنه تصغير لكلمة ولد... ضحكت جذلة ثم وجهت حديثها إلى صديقتي: أنت محظوظة... ضحكت صديقتي وقالت: الصدفة دائمًا هي التي تحكم حياة الإنسان... جلست المرأة إلى جانبنا على المنضدة وبدأتا الحديث بسرعة فلم أفهم منهما إلا القليل.

بعد لأي ذهبت صديقتي إلى طوني، تحدثت إليه وأشارت إليَّ، لا أعرف ما الذي دار بينهما... ثم نهض طوني من مكانه واتجه الي، مدَّ يده بالسلام قائلاً: وأخيرًا، انضم إلى (شلتنا) رجل عربي، ما اسمك أيها الشاب؟... قلت: وليد رباح... قال وهو يتطوح: أنت ضيفي الليلة، يجب أن تنتقل إلى منضدتي... قلت: لا أستطيع أن أترك صديقتي وحدها... قال: هي معك، أنتما

ضيفاي... ضحكت صديقتي وقالت : إذن في هذه الليلة سوف نجد من يدفع ثمن مشروباتنا... ضحكوا جميعًا... وهكذا رُصَّت منضدة أخرى إلى منضدة "طوني عتال" وانتقلنا إليها...

جلستُ إلى جانب طوني وبدا اهتمامه بي واضحا للجميع... وللمناسبة ، بعد سنوات عثرت على طوني عتال على الشارع الرئيس لمدينة باترسون وهو في ثياب رثة ولا مكان سكن له... وتلك رواية أخرى سوف أكتبها منفصلة عندما يحين الوقت وانتهي من هذه العجالات...

أمضينا وقتا طويلاً... نظرتُ إلى ساعتي فإذا بها الثانية صباحًا ، ثم نظرت إلى وجه صديقتي فإذا النعاس يغالبها نتيجة الشرب والسهر ، قلت لها هامسًا : الوقت متأخر ، هل نذهب؟. قالت : غدًا يوم الأحد ، لا عمل ولا شيء نفعله ، دعنا نسهر حتى الصباح... قلت : ولكني أرى النعاس في عينيكِ... قالت : لا بأس، بعد ساعة أو أقل سوف أعود إلى نشاطي.

قال طوني : أنت ضيفي ، يجب أن تأتي معي إلى بيتي : قلت : لا أستطيع إلا بإذن من صديقتي... قالت : بماذا تتحدثان؟... قلت لها : طوني يدعوني إلى بيته الليلة... قالت مستغربة : لا ، لا

تذهب... قال طوني: ولماذا؟ إنه ضيفي... قالت: إنه لا يعرف شيئًا هنا، ثم تابعت ضاحكة: إذا تركته لك فإني سأراه غدًا وهو يتطوح سكرا... ضحك وقال: إذن نستفتيه: هل تذهب في ضيافتي أم تظل في ضيافتها؟... قلت: بل في ضيافتها... قال بالعربية: أنت إنسان وفي... إذن، أسحب عنك ضيافتي.

عند الساعة الثالثة صباحًا تحركنا إلى المنْزل، ومن الخارج رأينا أضواء المنْزل في كل أرجائه. قالت: ربما كان ريتشارد في المنْزل.

دلفنا إلى المنْزل، فإذا شاب طويل القامة أشقر الشعر بصحبته فتاة قدَّمها لي على أنها خطيبته... جلس الشاب إليَّ وهو مبتسم وقال: اسمها ماري، وفي غضون سنة أو دون ذلك سوف نتزوج... نظرتُ إلى بطنها فإذا به منتفخ، وقلت مستغربًا: ولكنها حامل... ضحكت صديقتي وقالت: نعم هي حامل، أعرف أنكم تستغربون ذلك، سوف يتزوجها... قلت ضاحكًا: إذن في حفل الزواج سوف يكون طفلهما قد بلغ السنة... قالت ضاحكة: نعم، سوف يحتفل ثلاثتهم معًا.

أمضى ريتشارد وخطيبته ردحًا من الوقت الذي كان متأخرًا أصلاً... ثم نهضا سويًا تتكئ على كتفه وغادرا المكان قائلاً: لا

تنسى أنك ضيفي غدًا على الغداء... قلت : إذا أذنت أمك...
قالت صديقتي : إذا كنا جميعًا سويًا فأنا أوافق. ضحك ريتشارد
قبل أن يغادر وقال : أنت الأولى ونحن ثانيًا وثالثًا ورابعًا.

عند الظهر أفقتُ من نومي ، كانت الساعة قد قاربت العاشرة
صباحًا ، البيت هادئ تمامًا... قلت في نفسي : لم تزل نائمة ،
سأُعدُّ بعض القهوة ومن ثم انتظر استفاقتها... وفجأة راودتني
فكرة رأيتها معقولة ، أن آخذ مفتاح سيارتها الذي وضعته على
منضدة ضوئية إلى جانبها ، وأسوق السيارة في الحي كي أتعرف
عليه وعلى المنطقة... دلفت إلى غرفتها ، كانت تغطُّ في نوم
عميق ، أخذتُ المفتاح وانسللت خارجًا... قمت بسياقة السيارة
في الموقف أولاً ، ثم تابعت طريقي خارجه... كان الشارع خاليًا ،
اليوم عطلة رسمية ، لا سيارات هناك ولا حتى بعض الناس...
وعن قُرب رأيت محلاً مكتوبًا عليه (دنكن دونتس) مرسومًا
على واجهته كأسًا من القهوة... أوقفت السيارة أمامه ودلفت
إلى داخله... وبصعوبة استطعت أن أُفهم الفتاة هناك أنني بحاجة
إلى كأس من القهوة وبعض الدونتس... وهكذا حملتُ كأسين
من القهوة وفي علبةٍ ما اخترته من الدونتس... قلت في نفسي :
هل هذا طعام أم بعض الحلويات؟ ، تذوقت واحدة فإذا بها حلوة

المذاق، أكلتها، ثم تابعت طريقي هنا وهناك، وكنت كلما مررت بشارع احفظ اسم الشارع... أمضيت ما يقرب من ساعة ثم عدت إلى المنْزل بعد أن همتُ في طريقي مرتين، ولكني ولجتُ إلى البيت أخيرًا.

وجدها في الصالة تعدُّ بعض القهوة، وعندما دلفتُ إلى المنْزل رأيت القلق على وجهها، فقالت عجلة: أين كنت؟ ما الذي جرى لك أن لا تخبرني أنك سوف تخرج من المنْزل؟... قلت لها: ذهبت وأحضرت لك كأسًا من القهوة وبعض الدونتس... قالت مبتسمة: لا تذهب مرة أخرى دون أن تخبرني...

كانت فرِحة بالقهوة التي أحضرها. جلسنا سويًا، شربنا القهوة، ثم قالت: أشعر بدوار في رأسي، كانت سهرة طويلة... قلت: أنتِ التي اخترتِها... ثم جاءت إليَّ وقبلتني في جبيني قائلة: أشكرك على القهوة.

(٧)

جاءها هاتف من ابنها أن تستعد للغداء... رافقتني إلى حيث أعطاها عنوانًا لمطعم في مدينة جارفيلد... كان المطعم مختلفًا يقدِّم الطعام على الفحم... اجتمعنا سويًا : هي ، وأنا ، ريتشارد ، وخطيبته... قالت : ماذا ستأكل ؟... قلت لها : أخبرتك فيما سبق أنني لا آكل اللحوم... قالت : كل شيء هنا إمَّا مكون من لحم أو دجاج... قلت : إذن أختار أحسن الأمرين ، لا بأس بالدجاج ، ولكن هل هناك بعض (التحابيش) ؟ قلتها بالعربية لأني لا أعرف كلمة إنكليزية تدل عليها... فقالت فرِحة : أنت تذكِّرني بزوجي الراحل ، فقد كان يذكر التحابيش عندما نأكل ، وكنت أحضر له المخللات والحمص والفول والسلطات وغيرها مع الطعام... ضحكتْ وتابعت : هل تحابيش من اللغة العربية ؟ قلت لها : في كل قُطر من أقطار العرب يسمونها باختلاف... تدَّخل ريتشارد في حديثنا وفجَّر قنبلة لم نكن نتوقعها ، قال : متى تتزوجان ؟... قالت بشيءٍ من الحدة : أنتم شباب اليوم تسرعون في أفكاركم سرعة الطائرات النفاثة ، ألا يوجد في هذا العالم شيءٌ اسمه الصداقة... قال : أنا آسف يا أمي ، ظننتُ..... لم

يكمل حديثه، فتابعتْ: لا شيء سوى محبة الأصدقاء، لقد ملأ علي حياتي... قال: لا تغضبي يا أمي... قالت: لست غاضبة ولكن منْزعجة... قال: ولا تنْزعجي أيضًا، كنتُ فرِحًا بوجود من يُسلِّي وحدتك... قالت: أقسم على الإنجيل أنه ملأ حياتي وَنسًا وصُحبة، ولن يتبدَّل ما أشعر تجاهه طيلة عمري ... قال مبتسما: من يدري ما تأتي به الأيام؟... وضحكنا جميعًا.

عند الغداء جاءوني بدجاجة مشوية، ولكن طعمها كان ماسخًا، لم آكل إلا أطراف أجنحتها، فلاحظتْ ذلك وقالت: أنت لا تأكل؟ هل أسأتُ اختيار الطعام؟... قلت: أخبرتك أنني لا آكل اللحم... قالت: ما رأيك أن نطلب شيئًا آخر يمكن أن تأكله؟ قلت: ولكنك قلتِ لي إن هذا المطعم لا يقدِّم غير المشويات... قالت: إذن نسألهم... أشارت إلى النادل وقالت له: ألا يوجد طعام غير ما نقرأه في القائمة التي أمامنا؟... قال النادل: هناك عصافير مشوية لم تُدرج في القائمة... قلتُ: حسنًا، لا بأس في هذا... ذهب النادل بعد أن رأى أنني لم آكل شيئًا من الدجاجة وقال: لن يدفع أحد ثمن ما قُدِّم من طعام، لأن الرجل لم يأكل، سوف نستبدله بالعصافير... ابتسموا له.

كانوا يأكلون وأنا أتضور جوعًا بانتظار العصافير السمن...

وبعد أن انتهى طعامهم أحضروا لي العصافير فتذوقتُها ، فإذا بها لذيذة الطعم.

قال ريتشارد : هل نذهب سويًا إلى السينما ؟. استشارتني فقلت لها : ما نوع الفيلم؟ قالت : إنه جيمس بوند... قلت : لا أحب هذا النوع من الأفلام الخرافية ، رجل واحد يهزم قبيلة من البشر، أحب الأفلام الواقعية... قالت : قد كنت مثلك تمامًا... ولكني أدمنت على حضور أفلام المغامرات حتى بِتُّ أعشقها... قلت : لا بأس عليك ، اذهبي مع ريتشارد وخطيبته واتركيني في المنْزل... قالت : لا ، إمَّا أن تأتيَ معنا وإما لن أذهب... قلت : يا سيدتي ، هذا الكرم يقتلني... قالت : عن أي أمر تتحدث ، لا أريد أن أسمع منك ثانيةً ما تقول... قلت : لكنها الحقيقة ، كنتُ غير ذي منْزل فآويتني ، واشتريتِ لي العديد من الملابس والهدايا، إنكِ تخجلينني... قالت : سبق أن قلت لك إنني لا أريد سماع ذلك ، أنت أحد أفراد أسرتنا... قال ريتشارد : يا أمي ، إنكِ لا تزالين في أفكارك قديمة قِدم الدهر ، الدنيا قد تغيرت وأنتِ لم تتغيري... قالت : دعني وشأني ، فأنا سعيدة بما أحمله من أفكار ، أنا من الزمن المنصرم... قال : طالما أنكِ ترتاحين لهذا فأنت وشأنك... قالت : دعني فيما أفكِّر فيه ولا تتدخل في أموري

الشخصية... قال لها: أنا آسف...

بعد لأيٍ عاد ريتشارد وخطيبته في سيارتهما... وفي طريق عودتنا إلى المنْزل قالت: ما رأيك أن نذهب إلى البحر؟... قلت: وأي شيء نراه في البحر؟، أمواج فقط... قالت: إن هناك محلات كثيرة للنُزهة، أتعرف السباحة؟... قلت: يمكن أن أغرق في شبر ماء، فقد عشت في بلد لا بحر فيه ولا حتى بركة... ضحكت وقالت: إذن أعلّمك السباحة... قلت لها مثلاً لم أستطع ترجمته للانجليزية إلا بصعوبة، عندما شاب أرسلوه للكُتَّاب... قالت: ما معنى ذلك؟. قلت: أبهذا العمر تطلبين إليَّ أن أتعلم السباحة؟ استغربت جوابي وقالت: يجب أن تتعلم أشياء كثيرة لم تفعلها في حياتك، السباحة فن ورياضة... قلت: يا سيدتي، دعي الفن والسباحة لكِ، أمَّا أنا فيكفيني ما أنا فيه.

عند المساء أصابتني نوبة من الغثيان والدوخة، كنتُ كمن يدور في دائرة مفرغة اجتاز بعضها ولكني أعود كما كنت... قالت: لنذهب إلى الطبيب، أنت تعاني... قلت: لا بأس، قليلٌ من العسل والليمون والماء يمكن أن تعيد لي حيويتي... قامت من فورها وذهبت إلى المطبخ لإعداد ذلك... ازداد وجع رأسي... عادت وفي يدها كوب الليمون، كانت خائفة ترتجف، قالت:

كيف ترى وجع رأسك؟ صفه لي... قلت: إنه في الناحية اليمنى من الرأس... قالت: أنت تخيفني، فقد قال لي زوجي ذلك منذ زمن ولكني فقدته، دعنا نذهب إلى الطبيب... قلت لها: يا سيدتي، دعيني اشرب الليمون ولا تخافي، أعرف وجع رأسي ودوختي من الطعام الذي تناولته، فقد أمضيتُ زمنًا طويلاً لم آكل فيه اللحوم... قالت: لم تتناول غير العصافير... قلت مبتسمًا: العصافير من اللحوم، أتريدين أن تقولي لي إنها خضار وفواكه... قالت: أنت تمزح في وقت يجب فيه أن تلتزم الصمت وتتناول بعضًا من الدواء... ذهبتْ من فورها ثانيةً من الغرفة وأحضرت لي حبتين تناولتُهما مع كأس الليمون.

بعد لأي هدأ الوجع واستعدتُ نشاطي فقالت: حتى لو كنت قد استرحت فاني أرغب في إرسالك إلى الطبيب للتأكد... قلت: لا، لن أذهب إلى الطبيب... قالت: أعرف سرَّ عدم موافقتك، أنت لا تمتلك النقود ولا تأمين صحيَّ لديك، دعني أتصرف لأنني أعرف بعض الأطباء يمكن أن يعالجوك مجانًا، حتى وإن لم يكن ذلك، فإني سوف أرسلك إلى الطبيب ولا بأس أن أدفع بعض النقود... قلت: افترضي أن الطبيب أعطاني بعض الدواء... قالت مقاطعة: أرجو أن تلتزم الصمت، ولا تفكِّر في

هذا الأمر ، فكر في نفسك أولاً ، ومن ثم دعني أتصرف.

ذهبتُ إلى النوم ، ولكن نوبة الغثيان قد أصابتني ثانيةً ، كانت الساعة حوالي الثانية صباحًا ، ذهبتُ إلى المطبخ لأتصرف في مثل هذه الحالة ، وفي دقيقتين كانت إلى جانبي وقالت : ألم أقل لك أن تستريح فإن أردت شيئًا دعني أفعله لك... قلت : لكنكِ كنتِ نائمة ، الوقت متأخر جدًا ، وغدًا يجب أن تذهبي إلى عملك صباحًا ، فإن سهرتِ طيلة الليل فإنكِ لن تستطيعي الاستمرار في العمل... قالت : أستطيع أخذ إجازة مؤقتة لساعات ، حتى إذا ما عالجك الطبيب عدت إلى عملي... قلت : أعرفكِ ، إن حدث ذلك فلن تذهبي إلى العمل... قالت : لا تراع يا عزيزي ، أعرف كيف أتصرف.

هدأ الألم ، عدتُ إلى فراشي ، ولكنها رفضت أن تذهب إلى غرفتها وبقيت إلى جانبي... قلت لها أن تذهب ، فقالت : لا ، لن أذهب ، دعني أجلس إلى جانب سريرك فلربما احتجتني... قلت : لا أحتاج شيئًا ، فقط اذهبي إلى النوم... قالت : لا بأس.

كانت عيناي تغالبان النوم ، فنمتُ عميقًا ، ولكني عندما استفقت في الصباح ، وجدتها نائمة على الكرسي إلى جانبي... يا الله ، مَنْ

هذه المرأة ، إنها حتى لا تسألني إن كنت أحبها أو يتسرب العطف إلى قلبي تجاه امرأة أراها ليست ككل النساء ، فقد سمعت عن عدم الاهتمام بالأجانب هنا ، لكن هذه المرأة تذكرني بحبيبتي وأمي وإخوتي وأخواتي عندما تصيبني وعكة ما.

(٨)

عندما استفقتُ ورأيتها إلى جانبي عاودني النوم سريعًا... استيقظتُ بعد لأي فلم أرها ، ونظرتُ إلى المنضدة القريبة من سريري فإذا بها قد تركت مفتاح سيارتها وغادرت ، فكرتُ قليلاً: كيف ذهبت إلى عملها ؟ ، لا بد أن صديقتها مارلين قد أوصلتها ، ولكن ، لِمَ تركت مفتاح سيارتها ؟ ، أيعني هذا أن أذهب للنُزهة في هذه الناحية؟...

ارتديت ملابسي ، كانت فرحتي طاغية بترك السيارة لي ، ولكني بعد لأي فكرت بالأمر وقلت لنفسي : يجب أن أهاتفها في عملها كي أتصرف... أدرتُ قرص الهاتف فردَّت عليَّ ورأيت في كلماتها بعض الانزعاج ، قالت : أريد أن أعلمك أن حفلة ستقام على شرف أحد الموظفين في دائرتي تقاعد ، ولسوف يستمر الحفل حتى تباشير الصباح ، لذا فإني أسمح لك بسياقة السيارة في ناحية ناتلي فقط ، لا تذهب بعيدًا ، فأنت لم تزل لا تعرف الطرقات وقد تضيع فلا تستطيع العودة للبيت... قلت : لكِ ذلك.

بقيتُ في المنْزل حتى المساء... هاتفتني، فقلت لها: أريد الذهاب إلى باترسون... قالت: ما زلت تفكِّر بأمر أخيك، أخشى أن تضيع... قلت: لا بأس يا سيدتي لا تقلقي، فأنا أعرف الطريق جيدًا إلى المدينة، وسأعود حتمًا وستجدينني في المنْزل... قالت: إن أضعت الطريق فلا تنسى أن تهاتفني في عملي، أما إن كنت في الحفلة فهذا يعني أنك سوف تضيع فلا تستطيع مهاتفتي، وقد تقضي ليلك دون أن تعرف الطريق، ولكن لا تنسى أن تسأل أحد رجال الشرطة فيدلونك على بغيتك... قلت: لا تقلقي، أعرف كيف أتصرف.

لم تكن الهواتف النقالة قد ظهرت في ذلك الزمان... نظرتُ إلى المرآة في صالة البيت فظهر على وجهي الضجر، قلت لنفسي: لن أذهب إلى باترسون، سأذهب إلى البحر... كانت فكرة قد بدت لي صحيحة.

أدرت مفتاح السيارة ووضعت إلى جانبي خريطة كنت قد اشتريتها، وتوجهت إلى (ازبري بارك) حيث البحر.

كانت الساعة قد أشارت إلى السابعة مساءً، وعبر الباركوي كنت أنظر إلى الخارطة بين حينٍ وآخر فيختل توازن السيارة،

ولكني كنت أسوق على الناحية اليمنى بشيء من التعقل... أخيرًا وصلت إلى بغيتي...

كان الصيف حارًا في ذلك المساء، رأيت السفن وقد صعد إلى متنها بعض المتنَزهين، فسألت أحد الذين يبيعون الأسماك على رصيف الميناء: إلى أين يذهب هؤلاء في هذا الليل؟... قال: إنهم يذهبون في رحلة إلى أعماق المحيط، إنهم يصطادون الأسماك، وهم يدفعون خمسة وعشرين دولارًا مقابل هذه الرحلة، ويعطونك سنارة للصيد، فإن اصطدت أكبر سمكة أعفوك من دفع الرسوم وتستعيد المبلغ الذي دفعته.

أعجبتني الفكرة، تفقدت جيبي فإذا به يحوي مائة دولار أخرى، ضحكت في سري وقلت: بقي أن تصرف هذه السيدة من مالها على نزهاتي، يا الله، كيف أرد لها هذا الجميل؟.

كان البحر هادئًا، سار بنا المركب حتى بلغنا أعماق البحر، كانت الأضواء في الميناء تبتعد شيئًا فشيئا، حتى اختفت تمامًا وعمَّت الظُلمة، لكن أضواء مصابيح المركب كانت تضيء صفحة الماء حتى خِلتُ أن الدنيا في النهار وليس ليلاً.

رأيت المتنَزهين يلقون بسناراتهم إلى البحر، نظرت فإذا الأسماك

تطوف على صفحة الماء أسرابًا كأنها تنتظر السنارة، وفي لحظات كان الجميع يلقون بصيدهم إلى متن المركب، كلٌّ يحفظ كومته السمكية كي يستعيد نقوده إن كانت السمكة التي يصطادها كبيرة... ألقيت بسنارتي، كان حظي في الصيد عظيمًا رغم أنها المرة الأولى التي أصطاد فيها السمك، بحيث بلغت كومتي أكبر من الآخرين، وفي لحظات علقت السنارة فلم أستطع سحبها، استعنتُ بمن على المركب فجاء أحدهم وساعدني على إخراج سمكة لم أر مثلها في حياتي، كانت كبيرة بشكل يعجز عنه الوصف... تجمع المتنَزهون حولي وأخذوا يرطنون باللغة الإنكليزية، كنت أفسِّر أشياء يقولونها وأشياء تغيب عني... ثم جاء سيد المركب لكي يقول لي: إنها أكبر سمكة اصطادها متنَزه حتى الآن، دعني أهنئك... قلت: شكرًا يا سيدي.

استعدت نقودي التي دفعتها على الفور.

عاد المركب بنا إلى الميناء واستدار إلى الناحية المعاكسة... جلست إلى حافة المركب فإذا أحدهم يدخن سيجارة ويلقي بنظراته إلى البحر... كان قصير القامة يظهر على مؤخرة رأسه بعض الشيب الذي يبرز من تحت طاقيته الأمريكية، لم ألتفت إليه في البداية، ولكن ملامحه الخلفية على الأقل كانت تدلني على أبي

أعرف هذا الرجل؛ أو هكذا شُبِّه لي... ألقى بعُقب سيجارته إلى البحر واستدار... يا الله... هل يعقل هذا؟... إنه أخي غازي، عرفته على الفور، فاتجهت إليه وقلت: غازي... نظر إليَّ باستغراب ثم انتابه شيء من الوجوم: وليد، أنت هنا؟... احتضنني بقوة بحيث شعرت أن عظامي تكاد تتكسر... قال: يا إلهي، ما الذي تفعله هنا؟، هذه صدفة غريبة، أخي حبيبي... احتضنته وقبّلته مرات عديدة... وأخيرًا، عثرتُ عليك... قال والدموع تنهمر على خديه: أخي حبيبي، ما الذي جاء بك إلى هنا؟.. قلت: سأحدثك فيما بعد، إنها رحلة رأيت فيها العجب، وأنت؟ ما الذي تفعله على هذا المركب؟... قال: إني اعمل على المركب في مطبخه، ولقد صعدت إلى السطح كي أدخِّن سيجارة، إذ أنهم لا يسمحون بالتدخين في المطبخ، إنني موظف هنا منذ أكثر من خمسة أشهر بعد بيع المخزن الذي يخصني... قال بعد لأي: أنا آسف يا أخي، سوف أعود إلى عملي في داخل المركب لأعدَّ وجبة خفيفة للعاملين على المركب، وسأعود إليك عندما نصل إلى الميناء... فرحت جدًا... تركني أخي وذهب قائلاً: لا تترك مكانك، سأعود إليك عندما نصل، إياك أن تغيب عن ناظري.

(٩)

دلفت إلى منْزل أخي... ولأول مرة أرى أولاده وقد أصبحوا يافعين... استقبلوني في بيتهم ورفضوا أن أغادر تلك الليلة... لم أشأ أن أخبرهم أن امرأة تنتظرني في بيتها ولعلّها قلقة لعدم وصولي حتى هذا الوقت المتأخر... وافقت على ذلك شرط أن أجري مكالمة هاتفية ، ولحسن حظي كان الهاتف في الدور السفلي حيث لا يسمعني أحد...

كانت الساعة قد جاوزت الثالثة صباحًا ، هاتفتها ، فإذا بها تصرخ : أين أنت ؟ قلت لها وقد ضحكتْ : يا سيدتي ، لقد عثرت على أخي هذه الليلة ، وأريد أن أقضي ليلتي عندهم فهم لا يريدونني أن أغادر في هذا الليل... قالت : ولكني سأستخدم سيارتي في الصباح فهل تأتي إليَّ بها ومن ثم أوصِّلك إلى أخيك... قلت : الوقت متأخر ، ولسوف أكون عندك في هذا الصباح... قالت : أقول لك الحقيقة ، المشكلة ليست في سيارتي ، ولكنها في أنني لا أستطيع النوم وأنت خارج المنْزل... قلت لها ضاحكًا : أهذا غزل ، أم حب ؟ أم كليهما ؟... قالت : أنت تضحك في وقت فيه آكل نفسي... قلت لها : لا تقلقي ، صدقيني سأكون

عندك في الصباح... قالت : اعطني عنوان بيت أخيك ولسوف تراني عندك خلال ربع ساعة... قلت بصوتٍ هامس : اسمعيني ، إن عاداتنا وتقاليدنا لا تسمح بذلك ، إذا تحدثت إليهم بالحقيقة سوف يضحكون على قلة عقلي طيلة الليل... قالت :. وأي ليل يا صديقي ؟ نحن في الصباح... قلت : إذن سأحاول معهم مرة أخرى.

بذلتُ جهدي خاصةً وأنني رأيت النعاس على وجوههم... وأخيرًا سمح لي أخي بالمغادرة على أن آتي في منتصف النهار لكي يستضيفوني على الغداء... وافقت...

بعد نصف ساعة كنت في منْزلها ، كانت تنظر إلى موقف السيارات في باحة المنْزل وهي قلقة لا تستريح ،. تسير وأراها في الضوء المنسرب من النافذة كأنما قد أصابها الأرق فلا تستطيع النوم ، وعندما رأت سيارتها تقف ؛ فتحت النافذة وأخذت تنظر إلى الموقف بشغف...

صعدتُ إلى المنْزل ، وكأنما كانت تنتظر قدومي لكي تقذف في وجهي كل اتهامات الدنيا : أنت تعمدت ذلك ، أنت تعرف أنني قلقة ؛ أولاً بسبب مرضك ، وثانيًا لأنك لم تخبرني... قلت : يا

سيدتي ، لقد كنتِ في حفلة ولا مجال للاتصال بك... قالت : على الأقل تعال إلى المنْزل وانتظرني ، وعندها سوف أوصِّلك إلى أخيك.

لم يرتسم على وجهها أنها صدَّقت ما قلته لها ، قالت متهكمة بعد لأي : أريد أن أرى هذا الذي تدعوه "أخي"... قلت : لا حول ولا قوة إلا بالله... قالت : ماذا ترطن بالعربية ؟... قلت : لا شيء ، أذكر الله فقط... قالت : لن أدعك تنام حتى تخبرني بالحقيقة... حلفت لها أنها الحقيقة ، كانت سيجارتها لا تنطفئ ، تعطيني واحدة إثر أخرى ، فأقول لها : كفى ، لا أستطيع التدخين بمثل هذه الشراهة... أخيرًا هدأت وقالت : حسنًا ، أعرف عاداتكم وتقاليدكم ، وكأن معرفتك بامرأة في عرفكم سُبَّة وشتيمة... قلت : إلا أنتِ ، فليست سُبَّة أن أعرفك ، وليس شتيمة أن أراكِ ، أنتِ يا سيدتي هي الكون كله ، فلا تتهميني بما ليس بي ، لقد بحثنا عن أخي سويًا حتى حفيت قدمانا ، وأنتِ كنتِ تتمنين أن أجده... قالت : إذن : كيف وجدته؟... قلت لها حكاية أنني ذهبت إلى الميناء ، وهناك قابلته على إحدى السفن. قالت بصوت مخنوق : إنها رواية لا يصدِّقها عقل ، هذه صدفة غريبة ... قلت : نحن لا نعرف قدرنا ، فقدري أن التقي بأخي

على تلك الصورة... قالت : لا بأس... ثم قالت فجأة : هل تصطحبني على الغداء عند أخيك غدًا ؟... ابتسمتُ... قالت : فيم ابتسامتك؟، قل لهم إنها صديقتي... قلت: حسنًا سأحاول.

قضينا تلك الليلة ولم تنم، لكنها في النهاية غفت على كرسيها داخل غرفتها حزينة، أمَّا أنا فقد هدَّني التعب، وأمضيتُ ساعاتٍ من النوم في غرفتي، وكانت تطرق الغرفة بين آنٍ وآخر لكي توقظني وتسألني سؤالاً... قلت لها في النهاية : إذا لم تنامي فسأغادر المنْزل... قالت: معك حق، لن أعود إليك مرة أخرى، استرح فقد انبلج الصباح... ثم تابعتْ : لقد قلتُ لكِ إنني سأغادر المنْزل إلى عملي، لكن اليوم إجازة، هي عطلة رسمية، فلن أكون في عملي هذا اليوم، لهذا قلت لك أن أرافقك إلى أخيك للتعرف إليه وإلى عائلته... قلت لها: إذن، عندما نستفيق بعد نوم سوف أقوم بمهاتفة أخي لأقول له إنكِ معي.

داهمنا النوم فلم تأتِ بعد ذلك إلى غرفتي... وعند الساعة العاشرة صباحًا استفقنا سويًا، فإذا بها تأتيني بكوب من القهوة الساخنة، قالت: ألا تتصل بأخيك؟... قلت: بلى ولكن الوقت ما زال مبكرًا، دعينا لساعة أخرى... قالت: على رسلك، أنت على حق.

عندما هاتفتُ أخي تلقيت جوابه عكس ما كنت أتوقع، أفهمته ما يجري وما جرى، وبأن تلك المرأة قد استضافتني في بيتها... لذا فإني أشكرها، ولم أشأ إخبارك عندما دلفت إلى منْزلك حتى لا تلومني... قال: أنت محظوظ يا حبيبي منذ صغرك، هذا من توفيق الله لتجد من يرعاك في رحلتك الأولى إلى أمريكا... وكنت أسمع زوجته إلى جانبه تضحك... قلت له: ما بال زوجتك تضحك؟... قال: لم يحظ أحد بما حظيت به... وأخيرًا أنهينا المكالمة بعد أن قلت له إنني سوف أصطحبها إلى منْزله للغداء.

بعد أن أقفلت الخط قلت لها النتيجة إذ كنا نتحدث العربية... فرحتْ كثيرًا وقالت: وأخيرًا سألتقي عند الظهر بعائلة عربية... ثم تابعت: هل هم متزمتون دينيًا؟... قلت: كلا، إنهم منفتحون وطيبون.

دلفنا إلى منْزل أخي وكانت هي التي تسوق السيارة... استقبلنا أخي بالترحاب قائلاً: إذًا كانت السيارة التي تسوقها الأمس سيارتها... قلت: نعم، هل تظن أنني في خلال أشهر يمكن أن أشتري سيارة... قال: على أية حال، عندي سيارة إضافية هي لك... قلت: لم أمتلك رخصة أمريكية حتى الآن... قال:

القوانين هنا مريحة ، بإمكانك أن تقوم غدًا باستصدار رخصة قيادة... قلت : ولكني لا أمتلك أوراقًا تجيز ذلك ، فقد جئت بتأشيرة زيارة لهذا البلد... قال : القوانين تسمح لك.

- كان ذلك الزمان جميلاً ، إذ لم يلزم أن تحصل على رخصة أو كرت ضمان شرط إقامتك، ولكن الأمور كانت هينة -...

أمضينا بعض الوقت على مائدة الغداء ، كنا نضحك ونسترسل في قفشاتنا بالنِكات ، ولكنها كانت تطلب إليَّ أو إلى أخي ترجمة ما نقول ، كانت جذلة وفرحة جدًا...

وعندما غادرنا منْزل أخي في ذلك اليوم عند المساء... قالت : عائلتكم مستضافة عندي للغداء يوم الأحد القادم.

(١٠)

في غدائنا الذي ضمَّنا مع أخي وعائلته ، كان المطعم فاخرًا لدرجة أن الإحراج قد أصابني وقلت لها سِرًّا : لماذا اخترتِ هذا المطعم بالذات ، إنه فوق طاقتي... قالت : أنا الذي دعوهم... ثم أضافت : هل أنت بخيل إلى هذه الدرجة؟... قلت : يا سيدتي ، عندنا مثل يقول: الجود من الموجود... قالت: أمثالك لا تعجبني، لقد دعوهم وأنا التي سأدفع ثمن غدائهم... قلت : على رسلك ، لا تحرجيني مرة أخرى ، هذا يكفي... قالت : اصمت... فصمتُ.

كان الغداء شهيًا ، ولكن موجة من الحزن أصابتني فأنا لا أمتلك المال الذي هو عصب الحياة في أمريكا ، فوجبة واحدة من الغداء يمكن أن تصيبني بالإفلاس التام ، خاصة وأنني لم أعمل بعد ، واعتمد في مصاريفي اليومية عليها ، لكني كنت بيني وبين نفسي أتساءل دائمًا : كيف أستطيع سداد ما عليَّ من ديون تحملتْها ، إنها تشتري حتى سجائري... نظرتْ إليَّ بشيءٍ من الريبة وقالت: أعرف بماذا تفكِّر ، دع الأمور تجري دون تفكير بها ، أنت عوضًا عن أنك تحرج نفسك فإنك تحرجني ، إني أمتلك المال ؛ ليس

كثيرًا وإنما هو فائض عن حاجتي... قلت : أنتِ وما تشائين... لقد أتعبت نفسك وأتعبتني.

عندما انتهينا ذهب كلٌّ في طريقه... أخي وعائلته ذهبوا إلى منْزلهم، أمَّا أنا فقلتُ لها : اتركيني في مكتب البريد... قالت : ما الذي تفعله في مكتب البريد؟... قلت : اتصل بعائلتي في الوطن.

اتصلتُ بأُمِّ خالد في عمَّان، واتصلتُ بزوجتي الأخرى في مصر، وكان الاتصال في ذلك الوقت يتم بواسطة (الترنك) تنتظر ساعات لكي يأتيك الخط، وأكثر ما كان يزعجني أن الدقيقة الواحدة من المكالمة كانت تكلف دولارين على الأغلب، وهو مبلغ فوق طاقتي... لم أرسل للزوجتين مالاً كافيًا سوى ما كانت تجود به صديقتي، فإن رأيتُ في جيبي مائة دولار أرسلها إلى إحداهما، لم تكن في ذلك الوقت شركات تحويل النقود كما هو اليوم، كنت أذهب إلى البنك الذي تستغرق رحلة النقود فيه إلى الوطن أيامًا ربما جاوزت العشرة، لكنه في النهاية يصل.

قالت لي أم خالد : إياك والنساء... ثم تحدثتُ إلى زوجتي الأخرى فقالت : إياك والنساء... فضحكت مقهقهًا في الاتصال الثاني... قالت لي : لِمَ تضحك؟... قلت : أليس في ذهنكما سوى ما لا

أفكِّر فيه ، أنتما تقرأن على شيخ واحد... قالت : أنتظر أن ترسل لي لكي آتيَ اليك ، فأستطيع كبح جماحك في حُبِّك للنساء... قلت لها : يا ابنة الحلال ، ليس في ذهني سوى إطعام أطفالي والبر بكما... قالت : وفقك الله.

عند المساء قالت لي صديقتي : دعنا نخرج، أكاد اختنق... قلت : إلى أين ؟... قالت : كما تريد أنت ، أترك تحديد هذه الفسحة لك... قلت : هل نذهب إلى البحر ؟... قالت : ولكنك رفضت فيما مضى أن تذهب إليه... قلت : أفكِّر في أمرٍ ما... قالت : ما هو ؟... قلت : أترك ذلك حتى يتحقق الأمر ، دعينا نذهب إلى البحر... قالت : يبدو أن الصدفة في لقاء أخيك جعلتك تحب البحر ، الدنيا مساءً ، ما الذي سنفعله في البحر ؟ إن كنت تريده فليكن عند الصباح كي يكون الوقت أمامنا براحًا فأعلِّمك السباحة... قلت : يا سيدتي ، لا أريد أن أتعلَّم السباحة ، فلست في سنٍّ أتعلَّم فيه ذلك ، هل تذهبين معي ؟... قالت : كما تريد.

توجهنا إلى بيت أخي أولاً ، فوجدته قد ذهب إلى عمله المسائي فقد كان يعمل حتى أيام العُطل الأسبوعية ، ولكن زوجته أعطتني مفتاح سيارة الفان التي وعدني بها... قلت لصديقتي : اتركي سيارتك هنا ولنذهب في الفان علَّني أتمرَّن على سياقته... قالت :

أنت سائق ماهر ، أكيد سوف تعرف كيف تتصرف... قلت : لنجرِّب... تركتْ سيارتها واتجهنا سويًا إلى البحر في آزبري بارك... وصلنا متآخرين بفعل الزحمة في الطريق ، وجدتُ أن الباخرة التي يعمل بها أخي قد توجهت إلى البحر... فركبنا باخرة أخرى...

ما شاهدته في هذه الرحلة حفزني على أن أنفِّذ ما برأسي ، فقد كان السمك غزيرًا أكثر من المرة السابقة ، قلت لها ونحن على ظهر السفينة بعد تردد : هل أستطيع استلاف مبلغ مائتي دولار منك فأعيده إليكِ عندما تتيسر الأمور... ضحكت وقالت : هذا طلب بسيط ، ولكن لي سؤال ، لم أسمع منك أنك تريد المال ، فلماذا هذه المرة؟ قلت : إن في رأسي مشروعًا ربما كان مفيدًا... قالت : ما هو ؟... قلت : سأعمل في بيع السمك... قالت : وكيف تبيعه ؟... قلت : إن معي سيارة الآن أستطيع استخدامها فيما عزمت عليه... قالت : لا تفعل ، فالسمك يحتاج إلى مبردات وقد يفسد سريعًا في غير ذلك... قلت : نتفق في هذه الرحلة على شراء السمك وفي الرحلة الأخرى غدًا أو بعد غد ربما نشتريه ، وعندي طريقة أفكِّر بها للاحتفاظ بالسمك طازجًا... قالت : لا أريد أن أمنعك من ذلك ، ولكني متأكدة أن

مشروعك فاشل ، دعك من ذلك ، وسأبحث لك عن وظيفة غيرها... قلت لها : لم أشأ أن أعمل لأيٍ كان ، أريد أن أعمل لنفسي... قالت : أنت عنيد ، سوف تتذكر كلماتي ، لن تنجح.. قلت : سوف ترين... قالت : هاك المائتا دولار... وأخذت تفتِّش في شنطة يدها وأخرجت المائتي دولار... قلت لها : ليس الآن ، عندما يحين الوقت : قالت : أنت غريب فعلاً ، ابق النقود معك فلستُ بحاجة إليها الآن... قلت : إذن هاتِها ، سأسددها لكِ في غضون أسبوع على الأكثر.

عندما كنا على ظهر المركب كانت أكوام الأسماك للمتنَزهين تزيد بين ساعة وأخرى ، وقبل أن نصل أخذ من يعملون على المركب بإلقاء السمك ثانية إلى البحر ، سألت أحدهم : لِمَ تلقون السمك في البحر ؟... قال ضاحكًا : كي تأكل الأسماك الأخرى ، نحن لا نبيع السمك وإنما نصطاده فقط ، وهذا المركب للنُزهة وليس للصيد... قلت : هل تبيعونني شيئًا من السمك ؟... نظر إليَّ بشيءٍ من الريبة وقال : لا أملك الموافقة ، دعني أسأل لك المسؤول عن المركب... ذهب وعاد في غضون دقائق ، قال لي من يدير دفة المركب : هل ترغب حقًا في شراء السمك ؟... قلت : نعم... قال : كم سمكة تريد ؟... قلت : دعنا نقول مائة ،

وتابعت : بكم تبيعني السمكة ؟... قال : أعطني سعرًا... قلت : لا أعرف ذلك ، قل أنت... قال : السمكة الواحدة بدولار ونصف... قلت : بل بدولار واحد فقط... قال : أنت ترى السمك أمامك ، إن السمكة الواحدة تزن أكثر من أربع أو خمس باوندات... قلت : الاستفادة من النقود خيرٌ من أن تلقيه في البحر... قال : إذن اتفقنا ، متى تريد أن تشتريه ؟... قلت : ربما بعد يومين... قال : حسنًا.

كانت رحلة جميلة أسعدها وأسعدتني ، صديقتي كانت فرحة وقد ظهرت الابتسامة على وجهها فزادها جمالاً... أخيرًا وصلنا إلى سيارها فقادها إلى منْزلها وقدتُ الفان ؛ الذي أصبح منذ اليوم ملكًا لي ؛ إلى بيتها...

لم أعرف أن الكيس البلاستيكي الذي كانت تحمله يحوي سمكة كبيرة اشترها من المركب وهيَّأها للطبخ ... قالت : دعنا نأكل سمكًا في هذا المساء... قلت : من أين أتيتِ بها ؟... قالت : أعتقد أنك كنت تفكِّر في مشروعك فلم تربي وأنا أساوم الرجل على شراء سمكة كبيرة...

كنتُ قد ذهبت إلى غرفتي وهي تطبخ السمك ، فغفوتُ قليلاً...

لكني شممت رائحة شواء السمكة عندما أفقتُ من إغفاءتي... جاءت إلى غرفتي وقالت: الطعام جاهز...

كنتُ جائعًا جدًا، كانت تباشير الصباح قد أخذت تلوح مع نسمات الفجر الدافئة... أكلنا سويًا... كانت الفرحة على وجهها كأنما تحولت إلى طفل عذبة ابتسامته... قلت: أتذهبين إلى عملك اليوم؟... قالت: أنت لا تتابع أيام الأسبوع، اليوم هو السبت... قلت: إذن أستطيع النوم حتى الظهر، فقد تعبت في هذا اليوم... قالت: على رسلك، أنت في اليوم التالي لما كنا عليه... قلت: معك لا يستطيع المرء أن يحفظ الأيام.

أمضينا يوم السبت في سرور وحبور، كانت تلاحقني في الشقة إذا ما عاكستها بالكلام، وأخيرًا حملتْ عصا في يدها فقلت لها: إني أستسلم، فلا قبل لي على الضرب بالعصا، لقد أشبعتني المخابرات في بلدي ضربًا بالعصي والكرابيج، أفجئتُ إلى أمريكا لأرى نفس ما كنت ألقاه... حطَّت عصاها وجاءت إليَّ لتقول: أريد تفصيلات عما جرى لك... قلت: هذه أسرار لا أذيعها، فهي تؤذي بلدي أولاً وتؤذيني ثانيًا، عوضًا عن أن ذلك كان منذ زمن بعيد، الآن تغيَّرت الأحوال... وأضفتُ لها كاذبًا: وأصبح الرأي مسموحًا به سواء كان سلبًا أو إيجابًا.

(١١)

فرحتي لا تُقدَّر ، فقد تحسَّستُ جيبي الذي امتلأ بالنقود الدولارية ، وحمدتُ الله على ذلك... قلت في نفسي : سأعيد كل ما استدنته من صديقتي... ولكن... كيف تمَّ ذلك؟...

في المساء كانت صديقتي قد ذهبت إلى ابنها في بيت خطيبته لأن إجازته قد انتهت وسيعود إلى وحدته العسكرية... هاتفتها عنده وقلت لها : الساعة الآن الخامسة ، سوف أذهب إلى البحر... قالت : ألا تصطحبني؟... قلت : لا ، فلدي بعض الأمور أنجزها قبل ذهابي ، ولا أريدك في هذه الرحلة التي قد تصيبك بالتعب ، ليست فُسحة ، وإنما هي مغرمة... قالت : عندما تعود سوف نتحدث... قلت : لا تنتظريني ، فقد يكون الوقت متأخرًا... قالت : على رسلك ، إذا كنتُ نائمة فسأستيقظ عندما تدلف إلى الشقة... قلت : لا بأس.

ذهبتُ إلى مركز تسوق قريب في مدينة باترسون يعمل لأربع وعشرين ساعة متواصلة ، وهناك اشتريتُ أكياسًا بلاستيكية تحوي الكثير من الثلج ، وضعتها في نعش خشبي صنعه أخي قبل يوم عندما أخبرته بما اعتزمت عليه ، ثم غادرتُ إلى البحر.

انتظرتُ المركب حتى ما قبل منتصف الليل بقليل، اشتريت مائة سمكة من النوع الذي لا يوجد فيه شوكٌ وعظام، ثم وضعته في (النعش) الخشبي وتوكلت على الله وسرت إلى مدينة باترسون.

لم أكن قد خططت أين أبيع السمك، بحثت عن موقف للسيارات فرأيت أن الشارع الرئيس في المدينة في المنطقة العربية هو الموئل، وجدت ساحة واسعة فارغة فأرسيت مراسيَّ فيها... كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل... وهناك، رأيت مجموعة من (الهوملس) الذين لا يجدون بيوتًا لراحتهم ونومهم، كان الصيف جميلاً...

عندما دلفت إلى الساحة أخذوا ينظرون إليَّ بشيء من الريبة، لم ألتفت إليهم، ففتحت أبواب الفان الذي أسوقه وأخرجت منه بعض السمك ونشرته في خيطان على أطراف السيارة، حبهم للاستطلاع جعلهم يتحدثون اليَّ: ما هذا؟ سمك؟... قلت لهم: نعم... قال أحدهم: هل تعطينا سمكة؟... قلت مبتسمًا: وأين تشويها؟... قال: اعطنا سمكة فقط، فأبيعها للجيران... قلت: وهل تستطيع بيع السمك بمثل هذه الصورة؟.. قال على الفور: أستطيع بيع السمك كله إن أردت... قلت: كيف؟... قال: هذه منطقة فيها الكثير من الأسبان، وهم يحبون السمك، فإن

أعطيتهم سعرًا مخفضًا يمكن أن أبيع كل السمك الذي تحويه سيارتك... قلت : مقابل ماذا ؟... قال : تعطيني دولارًا على كل سمكة أبيعها.. قلت : حسنًا... قال : هل عندك أكياس بلاستيكية أضع فيها السمك ؟... قلت : نعم ، إن السيارة تحويه.

كانت الساعة قد جاوزت الخامسة صباحًا بقليل... قال لي : عند الثامنة صباحًا سوف أقوم ببيعه... قلت : ما اسمك ؟... قال : أنا "ألفريد" ، وهؤلاء هم أصدقائي ، ثم تابع : لماذا لا تشركنا في البيع جميعًا ؟... قلت : كم فرد أنتم ؟... قال : أنت ترانا ؛ ثلاثة. قلت : إذن نبدأ البيع في هذا الصباح ، وسوف نرى النتيجة.

تسامرنا سويا... جلست إلى الأرض معهم نتحدث... كانت انجليزيتي قد بدأت تتحسن... كنت افهم بعض ما يقولون ولا افهم الكثير... لكنهم كانوا لطفاء شعرت بالأُنس معهم...

نظرتُ إلى ساعتي فإذا بها الثامنة ، قلت : هل نبدأ ؟ قال أحدهم : نعم... أعطيتُ كل واحد منهم كيسًا فيه خمس سمكات ، قلت لنفسي : إذا هربوا بما لديهم من بضاعتي فسأستغنى عن خمسة عشر دولارًا دفعتها ثمنًا للسمك... أضفت لهم : يجب أن تتفرقوا وتعيِّنوا لكل منكم منطقة يبيع فيها... قال أحدهم : نعم ، ثم

استدرك : بكم نبيع السمكة ؟ قلت : أنت تراها تزن أكثر من باوندين – بما يعني ما يقارب الكيلو في موازيننا – اطلب في السمكة خمس دولارات ، فإن كانت غالية على زبونك فلتكن أربع... استغربوا ذلك لأن ما أطلبه رخيصًا ، فالسمكة في محلات البيع بهذا الوزن ربما فاقت الدولارات العشر... ومن الغريب ان السمك جميعه كان تقريبًا بنفس الوزن.

ذهب الجميع وبقيتُ وحدي... طال جلوسي فقلت : العوض على الله ، لقد هربوا... أمضيت ما يقرب من نصف ساعة فإذا أحدهم قد جاء وجعبته فارغة من السمك... قلت : ماذا فعلت ؟ قال : بعت السمك كله... قلت : كيف ؟... قال : طرقت الأبواب ، ولم أعد إلا وقد بعته... قلت : بكم ؟... قال : السمكة بخمس دولارات... ثم توالى ظهورهم وقد جاءوا وانتزع كل منهم دولاراته التي باع بها ودفعوها لي... فرحتُ جدًا ، هذه هي الوجبة الأولى من البيع... قلت : هل تستمرون ؟... قالوا جميعًا : نعم... بعد أن نقدهم نصيبهم من المال ذهبوا ثانية ، ثم ثالثة ورابعة وخامسة... وقبل الظهر تفقدت السمك في (نعشه) فإذا به قد بيع كله.

تحسستُ جيبي ، فإذا به أكثر من أربعمائة دولار ، صرخت بيني

وبين نفسي: يا الله، هذا رزقٌ وفير، سوف استمر فيما أنا فيه.

بدأ البيع يتناقص... قالوا لي: ماذا لو انتقلنا إلى مكان آخر؟... قلت: أنا لا أعرف الأمكنة، دلوني عليها... قال أحدهم: تستطيع أن تنْزل إلى مركز المدينة... قال آخر: نعم، لكن ذلك يمكن أن يؤدي بنا إلى مخالفات البيع من قبل الشرطة، فبيع السمك يجب أن يكون بترخيص، وأنت لا تمتلك السيارة المخصصة لذلك، يجب أن يكون هناك تبريدٌ في سيارتك... قلت: لنجرِّب.

في الأيام التي تلت تنقلنا من موقع إلى آخر، ومن حسن الحظ أنه لم يوقفنا أحد... وفي غضون عشرة أيام كان في جيبي أكثر من الفين من الدولارات... يا الله... ما هذا الرزق الوفير...

كنت في خلال البيع قد وطنت نفسي على أن أنام في السيارة... ولن اذهب إلى صديقتي إلا بعد أن اجمع مبلغا اسدده ما استدنته منها أو منحتني إياه... ولم أفكِّر أن أذهب إلى بيتها أو أهاتفها إلا عندما يتحقق ما انتويته... ولكن هناك أمور يجب أن تُقال.

(١٢)

لستُ ناكرًا للجميل كي أُعذِّبها ، ولكني عولت ان أكون معها صادقًا... وفي نهاية الأسبوع طرقت بابها ، لم أجد أحدًا ، كانت الساعة الثامنة صباحًا ، استخدمت مفتاح المنْزل الذي أعطته لي ، دلفتُ إلى شقتها ، فتحت ثلاجتها وأفطرت مع قليل من القهوة... انتظرت ساعة حتى بلغت التاسعة أو أكثر قليلاً... كنت أنظر بين الفينة والأخرى إلى موقف السيارات الذي خلا من سيارتها... وفي غضون ذلك جاءت ، نظرتْ يمنة ويسرة فإذا سيارتي التي تعرفها جيدًا قد أوقفتها في رُكنٍ من الموقف... جاءت إلى الفان مسرعة ، نظرت إلى داخله ، لم تجد أحدًا... اتجهتْ بنظرها إلى النافذة ، كنتُ واقفًا ألوِّح لها... جاءت مسرعة كمجنونة تريد أن تأكلني ، فتحتْ الباب الذي كان أصلاً مفتوحًا ، صرخت في وجهي : ما الذي فعلته؟ هل تدرك ما فعلتَ بي ؟... قلت : على رسلك ، دعيني أوضِّح لكِ الأمر... قالت : لا أريد توضيحًا ، هل عرفت امرأة أخرى ؟... قلت : يا سيدتي ، ليس لدي الوقت لأعرف أحدًا ، اسمعيني... لم تكن تسمع ما أقوله ، كانت أعصابها تدل أنها فقدت حتى عقلها...

قالت : لقد ابتلاني الله بك ، أتعرف ما الذي جرى لي ؟ ، كنت أنام في باحة باعة السمك في سيارتي أنتظر المراكب ، والنتيجة ، أنت لست هناك... ذهبتُ إلى بيت أخيك ، لا يعرفون أين أنت... ذهبت إلى المحلات العربية على الشارع الرئيس في مدينة باترسون ، لا يعرف عنك أحدٌ شيئًا... أنت لا تعرف ما الذي صنعته ، غبت عني خمسة أيام خلتها دهرًا... قلت : إنها أربعة فقط... قالت : لا تجبني أرجوك ، إذا أردت ان تنهي هذه الصداقة فقل لي منذ الآن.. قلت : هل يستغني السمك عن الماء ؟ سوف يموت... قالت : ما الذي تعنيه ؟... قلت : يا سيدتي ، أنتِ الماء الذي سقاني وقت عطشي ، وأنتِ المرأة التي آوتني في بيتها في وقتٍ كنتُ فيه ضائعًا ، أنا لست ناكرًا للجميل ، لم أجد في حياتي امرأة تهتم بي كما أنت... هدأت قليلاً وأنا أتحدث إليها ، لكن أعصابها كانت لم تزل متوترة ، قالت : أتعرف من أين أتيتُ الآن ؟.. قلت : كلا... قالت : كنت أنتظر المراكب ، أخر مركب جاء عند السابعة صباحًا ، لم تكن فيه... قلت: يا الله ، لِمَ تعذّبين نفسك على هذه الصورة... قالت : أنت لست إنسانًا ، أنت وحش لم تأنس بعد... ضحكتُ ، فصرختْ : وتضحك أيضًا ؟... قلت : إن تصرفاتك تضحكني ، فأنا لست صغيرًا حتى

تهتمين بي على هذه الصورة ، بدأتُ أعرف الطرق والممرات والمنازل والأماكن ، فلا تقلقي... قالت : حسنًا ، ما الذي فعلته ؟ أخبرني ، منذ أن أخذت السيارة من أخيك وأنت تفعل هذا ، آتي إلى البيت فلا أجدك ، أبحث عنك في كل الأماكن ولكنك تذوب مثل الملح في الطعام.

قلت لها الحكاية ، ووضعتُ أمامها ما كان في جيبي من نقود... فغرت فاها وقالت وهي لم تزل غاضبة ، ما هذا ؟... قلت : ألفان من الدولارات تزيد قليلاً نتيجة غيابي وعملي في بيع السمك... قالت : هذا غير معقول ، لستُ مقتنعة... قلت : أنتِ تعرفينني ، هل كذبت عليك إبان رفقتنا ؟... قالت : لا... قلت : إذن هي الحقيقة... قالت : لا أدري كيف تتحول بهذه السرعة من صحافي إلى بائع للسمك... قلت : أنتِ على علم بأنني لا أجيد الإنكليزية ، كيف أعمل صحافيًا في هذا البلد الذي لا يتكلم أو يكتب بالعربية... قالت : سمك ؟ سمك ؟ ، هل أنت مجنون ؟... قلت : نعم يا سيدتي ، فمثلي إن كان عاقلاً لا يستفيد منه المجتمع شيئًا ، الجنون هو أسهل طريق للحصول على العيش ويأتي بالنقود لإطعام صغاره... دفعتُ إليها المبلغ وقلت لها : انتقِ ما تريدين ، إن أخذتِه كله فسوف أكون راضيًا... قالت : لن آخذ

شيئًا... لكني أصررت ، فقالت : لا أدري كم آخذ... قلت : الديون التي أسجِّلها تقول إنك أعطيتني ثمانمائة وخمسين دولارًا ، ولكن إقامتي في بيتك وعندك ، والهدايا التي أحضرتِها لا تُقدَّر بثمن... قالت ضاحكة : أعطني خمسمائة دولار فقط ، فاني بحاجة إليها... قلت : يا سيدتي ، خذيها كلها... قالت : كلا ، إني أترك لك ما يمكن أن تواصل به عملك فأنت بحاجة للمال... قلت : هل تسامحينني ؟... قالت : إني أسامحك ، لقد أخذت منك كفايتي.

أخبرتُها بكل ما جرى ، كيف صنع لي أخي ذلك (النعش) الذي وضعت فيه السمك ، كيف قابلت بعض الشُّبان (الهوملس) ، كيف تمَّ بيع السمك ، كيف امتلأ جيبي بالنقود...

أخيرًا هدأت قليلاً... نظرتُ إلى يديها اللتين كانتا ترتجفان فإذا بها لم تزل تنتفض ، قالت : لماذا لم تتصل بي أو تخبرني... ثم صمتت ، وصمتُ انا... لكنها تابعت : أخبرني بالحقيقة ولا تكذب عليَّ ؛ هل وجدت امرأة أخرى ؟... قلت غاضبًا : يا سيدتي ، ما زلتِ تتهمينني بما ليس بي ، هل النساء ملقاة على قارعة الطريق حتى ألتقط إحداهن ، وهل من عادتي أن أفعل ذلك ؟... ثم انفعلتُ غضبًا وخرجت مني كلمات غير لائقة ،

قلتُ لها : هل أنتِ زوجتي حتى تحاسبينني بهذا الشكل ؟...
ففغرت فاهًا ، وقالت : إذا أردت الزواج مني فاني سأفعلها هذا
اليوم... قلت : إذن فأنت تحبينني ؟... قالت : نعم ، ولا... ثم
تجاوزت زلة لساني بالزواج ولويت عنق الحوار إلى موضوع آخر
فقلت : هل كذبتُ عليكِ يومًا ؟ ، أعرف أنني قصَّرت في عدم
الاتصال بكِ ، ولكنني فعلت هذا لأن الأمر يحتمل أن أعمل
وأسدِّد لكِ ديوني... قالت صارخة : أنت لم تزل تذكِّرني بما
أكره ، يا رجل ، كُفْ عن هذا... ضحكتُ ، ومن ثم رأيت
الابتسامة على ثغرها ففرحتُ... هدأتْ ، أحضرتُ لها كوبًا من
القهوة... كانت عيناها كأنما لم تذوقا للنوم طعمًا لأيامٍ خلت...
قلت لها : استريحي في غرفتك ونامي ، جفونك أصبحت حمراء
وعيناك أيضًا حمراوان ، خذي قسطًا من الراحة... قالت : كلا ،
ثم رأيتُ دمعة تسح من عينيها... قالت : أرجوك ، لا تتركني ،
لقد اعتدتُ عليك ، أنا لا أريد منك شيئًا ، فقط أريد أن تملأ
وحدتي بشيءٍ من الرفقة ، أنت تعرف أنني وحيدة في هذا البيت
وغيابك يصيبني بالجنون... قلت في نفسي: يا الله، ما هذه المرأة،
ومن هي؟ هل كل النساء في أمريكا على هذه الشاكلة عكس ما
كنا نتصور ونسمع.. قالت فجأة : بماذا تفكِّر ؟ ضحكتُ وقلت:

أنتِ أيضًا تريدين أن تعرفي ما الذي أفكِّر به... قالت : لقد أضفت كلمة أيضًا ، وهذا يعني أن أحدًا قد سألك هذا السؤال ؟ قلت : يا سيدتي ، لا تحاسبيني على غلطاتي في اللغة ،أستطيع التحدث بالعربية جيدًا ، ولكن الإنكليزية لم تزل في مهدها عندي... ابتسمتْ ، ثم ضحكتْ ، ثم جاءت إليَّ في أمر لم يكن في الحسبان ، احتضنتني وهي تبكي ، قبَّلتني على جبهتي ... مسحتُ دموعها بيدي وقلت : اسمعيني جيدًا ، لو اجتمعتْ كل نساء الأرض من حولي ؛ لن أخون عهد الصداقة الذي بيننا ، اطمئني ولا تأخذك الظنون مأخذًا يجعلني أبتعد عنكِ ، هذه صداقة مُقدَّسة لم يكن فيها دنسٌ أو رذيلة ، إنما أنتِ ملاك قد أرسله الله لي ولا أدري إن كنتُ قد فعلتُ شيئًا جيدًا في حياتي لكي أهتدي بك.

احتضنتها أيضًا ، مسحتُ دموعها ثانيةً ، ثم ذهبتُ إلى مكمن المحارم الورقية لكي أمسح دموعها المدرارة... استسلمتْ لِمَا أفعل ، ولكنها لم تترك احتضاني لها ، ضغطتْ على جسدي بكل قوتها... قلت مازحًا : هل تحرَّك فيكِ شيء لكي تحتضنيني بمثل هذا الحنان ؟... قالت مبتسمة : قلت لك أنك صديقي يا رجل ، ألا تفهم ؟... قلت : بل أفهم ، ولكني لم أرَ صداقة كهذه ،

الصديق يشتاق لصديقة نعم ، ولكن ليس على هذه الصورة ، أقول لكِ ، هذه ليست صداقة ، هل تحبينني يا سيدتي ؟ أخبريني بما في داخلك وما تفكِّرين به... قالت : لا شيء سوى ما أخبرتك به ، لا تتهمني بما ليس بي... قلت : صدقيني ، إن في داخلي نفس الشعور... كنت أتحدث بالحقيقة ، فلم أشعر يومًا أنها امرأة شهوانية ، بل كان حنانها مثل أُمٍّ تحنو على ولدها... أخيرًا ، ابتسمنا سويًا ، بدا جسدها الذي كان يرتجف بالاستقرار... قالت : هل أكلت أم أعدّ لك الإفطار ؟... قلت : لن تعديه لي ، لقد أكلت ، ولن تأكلي اليوم إلا من صنع يدي... ابتسمتْ ، وعلت ضحكتها ، وقالت : أخيرًا... ثم صمتت.

(١٣)

كان يومًا عصيبًا... لم أتوقع منها أن تكون عصبية ، وخِلتُ أنها سوف تخنقني وأنا نائم إن فعلتُ شيئًا يغضبها... وبدأتُ أفكِّر ، ربما كان فيها بعض المرض النفسي ، وفكَّرت : عندما تكون غير منفعلة يتجمع كل الحنان الذي ينفلش على مساحة وجهها وفي حديثها ورفقتها ، وسألتُ نفسي : هل أُحبها ؟ ، فأجابتني نفسي : اصمت ولا تفكِّر بالأمر ، عندك ثلة من الأولاد يجب أن أكون عقلانيًا وإلا هلكت.

بعد هدوئها قالت : هل تأخذني معك لأساعدك ؟... قلت بكل إباء : كلا ، هل تتحولين من مديرة إلى بائعة للسمك ؟!... قالت مبتسمة : وماذا عنك أنت ، صحافي هناك وبائع سمك هنا... قلت : الأمر مختلف ، أنتِ في بلدك ، وأنا هنا غريب لا يعرفني أحد ، أستطيع أن أعمل بكل نشاط وإخلاص حتى إن كان العمل لا يناسبني.. قالت بعد تفكير: لماذا تقيمون للمظاهر وزنًا؟ مديرة أو بائعة سمك، ما الفرق؟.. قلت : أنت يا سيدتي تتهمينني بأني أهتم بالمظاهر ، بينما أنتِ منغمسة فيها حتى الأُذنين ، ألم تقولي لي بعد أن كنت صحافيًا تعمل الآن في بيع السمك ؟...

تابعت بعد سكوت : لو بقيتُ في هذا البلد سنوات فلن أجد في جيبي ما أجده من بيع السمك ، عندما يطلب أطفالي النقود ؛ لن أقول لهم : لبست بدلة بيضاء أو سوداء ثم ذهبت إلى حفلة مسائية ، إنهم يريدون الخبز ولا يريدون مني الفشخرة... قالت : ما معنى ذلك ؟... قلت منفعلاً بعض الشيء : تريدين تفسيرًا لكل ما أقول دائمًا ، وأنا لا أقوى على ترجمة كل ما أقوله بالإنكليزية ، يا سيدتي ارحميني... قالت: هل ضايقتك ؟... قلت : شيئًا ما ، اهدأي يا عزيزتي – أو ربما قلت لها يا حبيبتي – قالت : ماذا قلت ؟ أعد الجملة... قلت بالإنكليزية : قلتُ يا حبيبتي... قالت : أجمل كلمة سمعتها في حياتي... قلت : هل تحبينني حقًا ؟... قالت : نعم ، أحبك ، وأحب أن أموت بين ذراعيك... قلت : يا ويلي ، هل أنتِ جان أم إنسان ؟ ، لا تنسي أنني متزوج من اثنتين... قالت ضاحكة : وما الغريب في ذلك ؟ ، فلتتزوج عشرة... قلت : هذا كثير ، فباثنتين أصبحت حياتي كالمروحة التي تدور في سقف الغرفة أو كثورٍ في ساقية أدور وأدور كي أطعِم الأطفال ، أتريدين أن أتزوج عشرة ؟... ضحكتْ حتى استلقت على ظهرها ، ومن ثم قالت : لقد حلَّ مجتمعنا هذه الأحجية بأن سمح لنا بأن تكون لنا رفقة اسمها(الجيرل فرند)...

لم أكن أعلم كثيرًا عن هذا الموضوع سوى بعض المعلومات المشوهة ، قلت : كيف تقبل المرأة أو الرجل على نفسيهما أن يمارسا ما يفعله الأزواج ويعيشا سويًا دون زواج... قالت : وما العيب في ذلك ؟... قلت : إنه العيب بعينه ، ثم استدركتُ : والأولاد ؟... قالت : لقد ضمن لهم القانون حياة جيدة حسب استطاعة الحبيبين ، ثم تابعتْ : ما هو الزواج ؟ ورقة يكتبها القِسُّ أو القاضي يمكن للإنسان أن يمزقها في الوقت الذي يشاء بذهابه إلى المحكمة ، وأريد أن أسأل : هل تستطيع النساء في بلادكم الزواج بأكثر من رجل واحد ؟... قلت : هذا محال... قالت : ولماذا ؟ بما أنكم تسمحون لأنفسكم بالزواج من أكثر من واحدة فيجب السماح للنساء أيضًا... قلت : يمنع الدين للمرأة من أن تتزوج من أكثر من واحد لأن اختلاط الانساب لا يعرف الولد فيها أباه ، والعكس أيضًا صحيح... قالت : قرأت في مجلة أمريكية قبل بضعة أسابيع أنهم اكتشفوا شيئًا اسمه "الدي إن إيه" وبذا يعرف الولد أباه ويستدل الأب على ابنه... قلت : وهل يقبل الرجل الشهم أن يشاهد زوجته وقد ضمَّها آخر في حضوره أو غيابه ، إنها كارثة... قالت : تعجبني الغيرة من الرجل العربي... قلت : يا سيدتي ، أنت تدينين بالمسيحية ، فإذا كان

الرجل في دينك ممنوع عليه الطلاق ؛ فكيف تطالبين بأن تكون للزوجة أكثر من زوج... قالت : كان هذا قديمًا ، اليوم يستطيع الزوج أن يطلِّق حتى دون أعذار ، مجرد أنه لا يريد العيش معها يحصل عليه ، والعكس أيضًا صحيح... قلتُ بعد سكوت : أسئلتك يا سيدتي غدت كثيرة ، ثم قلت : لم تجيبيني على سؤالي ، على أية حال دعينا من هذا الأمر... قالت بعد أن ابتسمتْ : ونحن ؟... قلت : ما الذي تقصدينه ؟... قالت : قلت لك أن نتزوج... قلت : أتريدين أن تزجي بي في السجن ؟ أنت تعرفين أن القانون هنا يمنع ذلك إذا كان الإنسان متزوجًا... قالت : وكيف عرفت ذلك ؟... قلت : تحدثنا أنا وأخي بالأمر منذ عدة أيام... قالت : قلت لك إن القانون حلَّ هذه المشكلة... قلت : أتقصدين ؟.. لم أكمل كلامي فقالت : نعم ، وما العيب في ذلك ؟ قلت : إنه العيب بكليته ، كيف يقبل الإنسان على نفسه أن يعيش كالبهائم ، يشبع غريزته فقط ، في وقت يمنع الدين وتمنع الأخلاق والغيرة والشهامة ذلك... قالت بعد تفكير : أتعرف ، زوجي السوري كان منفتحًا ، أما أنت فمتزمت ، أمضينا مع بعضنا وقتًا دون أن نتزوج ، ومن ثم بعد أن درس كلٌّ منا أخلاق الآخر تزوجنا ، فلماذا لا نفعل ذلك ؟... ضحكتُ كثيرًا قبل أن

أقول لها : من قال لك إني متزمت ؟ لقد جبتُ هذه الأرض بحثًا عن المرأة ، وعندما جئت إلى هنا عولت أن أكون عاقلاً... قالت: يا لحظي التعس... قلت لها : دعينا نبحث هذا الأمر في وقتٍ آخر... قالت : كما تريد.

صمتنا سويًا ثم قالت : هل تريد أن تذهب إلى البحر هذه الليلة ؟ قلت : أستريح هذه الليلة ومن ثم أذهب غدًا... قالت : أرجوك ، دعني أرافقك... قلت لها : حسنًا ، ستكونين معي وفق شرط واحد... قالت : وما الشرط ؟... قلت : أن لا تتدخلي في شؤوني هناك ، وأن يكون ذهابك معي في يوم سبت حتى لا تضطري للنوم في اليوم التالي ولا تذهبي للعمل... قالت فرِحة : أوافق.

ذهبنا كلٌّ إلى غرفته ، فقد أمضينا يومًا حافلاً في المناكفات... شعرتُ أن جسدي بحاجة إلى الراحة ، ولكن الحركة من قِبَلها لم تهدأ ، كنت أسمعها وهي تحادث نفسها حينًا وتطبق الأبواب حينًا آخر ، كانت تطل على غرفتي فأغمض عينيَّ حتى تتأكد أنني أنام فلا توقظني ... وعند منتصف الليل هدأت الحركة ، فاستسلمتُ لنومٍ عميق.

(١٤)

ثروة لم أتخيلها... في غضون ستة أشهر من العمل المتواصل كان لدي من النقود ما يكفي لشراء فيلا أو بيت كبير لسكن عائلتي التي تنتظر مني أن أُحضرها إلى أمريكا... لكنني اصطدمت بشيء لم أكن أتوقعه، فرغم الثروة والمال وبحبوحة العيش لم أنسَ أولادي وزوجتيَّ... كنت أشارك صديقتي في كل ما أفعل، عرضت عليها الأمر أن أشتري شيئًا يمكن أن يفيدني، فقالت: أنت لم تزل مقيمًا غير شرعي، لا تستطيع أن تفتتح عملاً يدرُّ عليك الربح قبل أن تصبح في هذه البلاد شرعيًا... قلت: وما العمل؟... قالت: أمامك فرصتان، إمَّا أن تتزوج من هذا البلد أو تسجِّل شركة باسمك تضع فيها كل ثروتك، فوجود النقود معك يمكن أن يحلَّ المشكلة، ولكن تلك مشكلة أيضًا، إذ يفترض أن تضع في البنك ما لا يقل عن ربع مليون دولار... قلت: لا أمتلك هذا المبلغ... قالت: إذن فلتتزوج... قلت ضاحكًا: أنتِ تجرين النار إلى قرصك يا سيدتي... قالت فرِحة: وما العيب في ذلك؟ إني أحبك... قلت: وأنا أيضًا، لكنني لا أريد إضافة زوجة أخرى فأصبح مثل ثور يجمع كل البقرات في

حظيرته... ضحكتْ حتى استلقت على ظهرها وقالت بعد أن توقفتْ عن الضحك: ألا تثق بالأمريكيات؟... قلت: بلى، فقد رأيتُ منكِ ما يُعدُّ أمثولة فيهن... قالت: لا تقس ما أقوم به على أنه ينسحب على كل النساء هنا، فإن ابتلاك الله بإحداهن ممن أسمع وأعرف؛ لن تعيش في هذا البلد أسبوعًا واحدًا، سترحل عنها سريعًا... سكتت قليلاً وتابعت: يا صديقي، في هذا المجتمع يحفظ القانون حق المرأة، فإن أنجبتَ مثلاً سوف تمضي عمرك بين أنياب المحاكم لكي تدفع ثم تدفع حتى يتوفاك الله أو يكبر أولادك... قلت: هناك مثل عربي يقول: من يريد العسل عليه أن يتحمل قرص النحل... ضحكت وقالت: إنه مثل يعجبني.

سرحتْ بعيدًا ثم قالت: اسمعني جيدًا، طالما أن التأشيرة في جوازك لم تزل سارية المفعول فإنك تستطيع أن تستخرج كرت ضمان اجتماعي ورخصة سيارة، دعني أساعدك في هذا.

أخذت أفكِّر في الأمر، كانت القوانين في نهاية الثمانينات وبداية التسعينات تجيز هذا الأمر، فقد كانت قوانين الهجرة في أمريكا رخية وبسيطة، أمَّا في هذا الزمان فإن القوانين قد عُدِّلت وأصبح المهاجر يقضي ثُلث عمره وهو يركض خلف وجوده الشرعي في

هذا البلد... قالت: بماذا تفكِّر؟... قلت: هذا حسن، متى نبدأ؟ قالت: بماذا؟... قلت: باستخراج الأوراق التي أشرتِ إليها... قالت: أول عمل يمكن القيام به بعد حصولك على رخصة السياقة أن تقوم باستبدال هذه السيارة المتعفنة التي تقودها، وأعرف أنك لا تستطيع شراءها دون أن يكون لديك تلك الأوراق... قلت: حسنًا، سأعمل بنصيحتك... قالت: والأمر الثاني أن تستخرج كرت ضمان اجتماعي لكي تدفع الضريبة، فهذا الكرت يصاحبك مدى حياتك... قلت: وهذا أيضًا أوافق عليه... قالت: إذن لماذا لا نبدأ الآن؟... قلت: على رسلك، إني أشعر بالتعب، فلنجعلها للغد... قالت: بل اليوم...
وهكذا كان...

ذهبنا سويًا إلى دائرة المرور ولم يستغرق الوقت سوى ساعة أو بضع ساعة كانت رخصة السياقة في جيبي... ثم اتجهنا إلى دائرة كروت الضمان الاجتماعي ولم يستغرق الأمر أيضًا سوى نصف ساعة على الأكثر، إذ نظر الموظف إلى تأشيرتي في الجواز فوافق على الفور... وهكذا حصلت على أهم وثيقتين في أمريكا.

ذهبنا بعد ذلك إلى معرض للسيارات الجديدة فاشتريت سيارة من نوع (لومينا) أدفع ثمنها أقساطًا...

استدركتُ فجأةً وقلت لها : إن أكبر أولادي يعيش في ولاية تكساس ، أخبرتك فيما سبق أنني أرسلته كي يتعلم في أمريكا كمهندس ، خالد يمتلك الجنسية الأمريكية بعد زواجه هنا... قالت : إذن فقد حُلَّتْ المشكلة دون زواج ، ثم أردفت ضاحكة : ولو أن ذلك في غير مصلحتي... ثم أردفت : يستطيع ابنك أن يقدِّم لك الأوراق فتحصل على الإقامة الدائمة...

وهكذا كان ، ففي غضون ثلاثة أشهر كانت الإقامة في جيبي.

قالت فجأة : أين تخبِّئ نقودك يا رجل؟... قلت ضاحكًا : إنها في بيتك ؛ في مخدتي التي أضع رأسي عليها ليلاً ، ألم تلاحظي ذلك؟ قالت مبتسمة : أتعرف ، منذ أن دلفتَ إلى بيتي لم أدخل غرفتك إلا وأنت فيها ، إنها خصوصيتك... قلت : أنتِ رائعة ، ومع كل ذلك فانيٰ آمنتك على نفسي ، فكيف لا آمنك على مالي ؟... قالت : أرجو أن لا تكون ساذجًا مع الغير... ثم تنفستْ الصعداء وأضافت : طالما معك الأوراق الضرورية فيجب أن نذهب سويًا في الغد إلى البنك لكي تفتح حسابًا باسمك وتضع نقودك فيه ، فلا تأمن ان يأتيك لص يخترق منْزلي فيذهب مالك...

وهكذا أصبح لديَّ حساب في بنك أمريكي.

في غضون الأشهر الثلاثة التي مضت أصبحت أتحمل مصروف بيتها ولوازمه ولا أدعها تصرف من جيبها الخاص... في البدء احتجَّتْ، ولكنها رضيت بما أقوم به، كانت ترفض أن أعطيها شيئًا من النقود حتى ولو كان قليلاً، كانت تقول لي: أوافق على أن تأتي بلوازم البيت كالطعام والشراب، ولكني أربأ بنفسي أن آخذ نقودًا من تعبك وسهرك، عائلتك في وطنك تحتاجك وتحتاج إلى نقودك... كانت ترفض بشدة.

لا أخفيكم أن هذه المرأة قد ملكت علي لُبِّي، فهي ليست ككل النساء، كنت أراها في ثوبها الأبيض المنْزلي كأنها ملاك يسير على الهواء، فأنا إنسان قبل كل شيء، وكنت أقول لنفسي: هي كل شيء في حياتي، ولكن أولادي يأتون في المقام الأول.

بدأتُ أفكِّر في مشروع يمكن أن يدرَّ عليَّ الربح لِمَا امتلكه من نقود... فكَّرتُ كثيرًا، جالت في خاطري مشاريع شتى، ثم جاءت الفكرة منها عندما قالت: اسمعني، أولاً يجب أن تشتري بيتًا، وثانيًا العرب هنا يزدادون عددًا، لماذا لا تحاول إصدار جريدة باللغة العربية يمكن أن تُدرَّ عليك الربح. قلت: يا سيدتي ما زال العرب في هذه المنطقة قِلَّة، هل تريدين أن أُصدر جريدة لثلاث محلات عربية على الشارع الرئيس بمدينة باترسون؟...

قالت : ابدأها صغيرة ومن ثم تكبر... قلت : دعينا من هذا الأمر أريد دراسته بشيء من التعقل... قالت : لا بأس ، فكِّر ، ولكن دعنا نفكِّر سويًا... قلت : لكِ ذلك.

(١٥)

درستُ موضوعة إصدار جريدة عربية من كافة جوانبها... كانت هنالك جريدتان تصدران، إحداهما في نيويورك والثانية في نيوجرسي ، نسيت اسم الأولى ، ولكن الثانية كانت جريدة "الاعتدال"... كانت الجريدتان تتبعان سياسية بلدي صاحبيهما ، الأولى كانت مصرية ، والثانية كانت سورية... لم تكن إحداهما تهتم بالقضايا العربية سوى قضاياهما المحلية في مصر وسوريا... وأول شرط وضعته على نفسي أن تكون الجريدة عربية صرفًا ، فلا فرق عندي بين عربي وآخر ، ورأيت أن هذا الأمر يمكن أن يجلب القُرَّاء العرب من كافة الجنسيات.

صرفتُ النظر قليلاً عن إصدار الجريدة بسبب إلحاح صديقتي أن أشتري بيتًا ، كانت تقول لي : إن شراء البيت يمكن أن يوفِّر عليك الكثير من المال ، فإن أصدرت الجريدة فأنت بحاجة إلى مكتب لتدير أعمالك منه ، وبدلاً من استئجار مكتب يمكن أن تخصِّص مساحة من البيت كمكتب للجريدة... ورأيتُ أن اقتراحها صائب... وهكذا ذهبنا سويًا إلى بعض أصدقائها ممن يعملون في بيع العقارات... وفي غضون شهرين كان لي بيتٌ

واسعُ في مدينة باترسون بنيوجرسي خصَّصت فيه مكتبًا.

بعد دراسة مستوفيه في ولاية نيوجرسي رأيت أن إصدار الجريدة لا يكون ناجحًا إلا إذا اتجهت إلى نيويورك... وهناك، دلَّني أحد الأصدقاء على الجمعية اليمنية التي كان مقرها أتلانتك آف في بروكلين... ذهبت إليهم واستمعت إلى آرائهم، كان اليمنيون في مبنى الجمعية أكثر من عشرين شخصًا يلعبون بما يسلِّي وجودهم في الجمعية... عندما عرضتُ الأمر عليهم فرحوا بأن تصدر جريدة عربية ليست إقليمية، فاليمنيون عرب يحبون العرب، إضافة إلى أنهم أصحاب أعمال ناجحون... وعلمت أثناء النقاش أن عدد المنضوين إلى الجمعية أكثر من ثلاثمائة يمني كلهم أصحاب أعمال حرة... وفي النهاية أجمعوا على أن يدعموا الإصدار، وتبرع أحدهم بجمع عشرين إعلانا للجريدة حتى تقف على قدميها، وكان هذا أول الغيث، إذ ضمنتُ أن الجريدة سوف تغطي مصاريفها.

في الأسبوع التالي ذهبت إلى الجمعية ثانيةً، فإذا بي أجد أمامي عشر إعلانات... قرَّرت بعد ذلك أن أصدر الجريدة بانتظار الإعلانات الأخرى... وهكذا كان...

انتقيت اسمًا للجريدة مستفزًا بعض الشيء ، كان اسمها (الغضب)... كانت الجريدة غاضبة على كل ما يجري ، وقد صدرت سنة ١٩٨٨م، إلا أن صديقتي اعترضت على الاسم... قلت لها : لنجرِّب أولاً ومن ثم نستطيع تغيير الاسم... وصدرت الجريدة بهذا الاسم حتى عام ١٩٩٢م... كانت نصف شهرية، وكان الإصدار مزعجًا ، إذ لم تكن هنالك حواسيب كما هي اليوم ، كنا نطبع الموضوعات على الآلة الكاتبة ، ومن ثم نقوم بقصها وإلصاقها على ورق مقوى، ثم نرسلها إلى المطبعة، وكان ذلك يستغرق وقتًا طويلاً.

كنت أوزع بعض النسخ في نيوجرسي بنفسي ، ومن ثم أذهب إلى نيويورك فأضع في الجمعية أكثر من خمسمائة نسخة ، يأخذ أصحاب الاعمال اليمنيون منها كميات لا بأس بها ويوزعونها على زبائنهم ممن هم أعضاء في الجمعية أو المشترون... أمَّا التوزيع بمجمله فقد كنت أقوم به وحدي في عدة أمكنة من مدينة نيويورك ومدن نيوجرسي... ثم امتدَّ بي الأمر أن أوزعها في ولاية نيويورك وليس في المدينة فقط ، فوصلت يومها إلى حدود كندا، إذ كانت الجريدة هناك.

حمدت الله على هذا التوفيق الذي لم أكن أتوقعه...

وفي العدد الثاني من الجريدة كان هنالك خمسة وعشرون إعلانًا تغطي مصاريف الطباعة ، وموظفة أخرى ، إضافة إلى بعض الأرباح.

لم أكن أنقطع عن زيارة صديقتي في كل يوم تقريبًا ، كنت أذهب معها ومع صديقتها مارلين إلى العشاء في أحيانٍ كثيرة... قالت لي مارلين مرة دون أن تدري صديقتي : اسمع يا وليد ، أريد أن أصارحك بأمر... قلت : هاتِه... قالت : لقد انقطعت عن عملها مدة تجاوز الشهر ، وهي بحاجة إلى النقود ، ولا تستطيع أن تدفع أُجرة شقتها ، حاولتُ في الكثير من المرات أن أخبرك بذلك ولكنها كانت ترفض أن أقول لك... قلت : لماذا لم تتصلي بي؟.. قالت : كنتُ أنفِّذ ما كانت تقوله ، إنها لا تريدك أن تخسر شيئًا.. قلتُ : يا الله ، هي التي آوتني في بيتها وتحملت كل مصاريفي ولا تريد أن أساعدها ، ما الذي يجري؟ ، أخبريني... قالت مارلين : لقد انقطع ابنها عن زيارتها لأسباب لا أدريها ، ولا تريد هي أن تصرِّح بها ، ليس بينهما سوى بعض الاتصالات الهاتفية... قلت : وتخبئ كل ذلك عني؟ ، إنني ألوم نفسي ، فقد أخذتني الجريدة التي أصدرها عن الاهتمام بها... قالت : اترك لها بعض النقود وأنا أقوم بإعطائها لها على اعتبار انها مني... قلت : ما الذي

تحتاجه؟.. قالت : أُجرة بيتها... مددت يدي إلى جيبي وأخرجت ألفًا ومائتي دولار أُجرة ثلاثة أشهر ، وقلت لها : لا تقولي لها إنني أعطيتك النقود ، فسوف ترفض حتمًا... قالت : سأذهب فورًا وأعطي مالك الشقة ما يجعله يصمت لثلاثة شهور قادمة.

في اليوم التالي أعطتني مارلين وصلاً بالمبلغ الذي دفعته ، وقالت لي : لا تنقطع عن الزيارة وخاصة ليلاً ، ففي الليل تعاني من أوجاع أنقلها على الأثر إلى المستشفى فيعالجونها وتعود ثانية معي إلى بيتها ، وهي حزينة لأنك أصبحت تقضي ليلك في البيت الذي اشتريته ، لقد أُصيبت بالإحباط... قلت : ولكن شراء البيت كان اقتراحها ، وعملي يقتضي أن أقضي جزءًا من الليل لكي أُحضِّر مواد الجريدة... قالت : قالت لي مرة إنها ندمت على نصحك بشراء البيت ، وكانت تقول لي لقد أخذ البيت صديقي مني ، أنا لا أستطيع العيش دونه ، وكنت أقول لها أن تصبر ، إمَّا أن تخبريه بما في نفسك أو تقلعي عن الشكوى ، وكانت تقول : لا تزعجيه أرجوكِ ، دعيه في عمله ، لقد بدأ نجاحه يظهر للعيان ، لا أريد له أن يهتم بي فيترك عمله.

في الأيام التي تلت كنت أزورها يوميًا عند الصباح والمساء ، وأسهر معها حتى ما يقرب من منتصف الليل ، فلا أنام إلا لمامًا ،

كانت تتوجع أمامي ولم أستطع أن أفعل لها شيئًا سوى أن أرافقها مع صديقتها مارلين إلى المستشفى، كانت في كل يومين أو ثلاثة تذهب للمعالجة، فأرافقهما، ومن ثم أعود بهما إلى بيتها... أحيانًا كنت أنام في بيتها، وفي أحيانٍ أخرى أذهب عند منتصف الليل أو بعده ومن ثم أعود في الصباح.

في ليلة عندما كنا نسهر سويًا سألتني: هل أعطيت مارلين نقودًا لكي تدفع أُجرة شقتي ؟... ارتبكتُ قليلاً وقلت: لم يحدث هذا... قالت: أنتما تكذبان سويًا، فأنا أعرف قدرات مارلين المالية، لقد جاء صاحب الشقة لكي يشكرني على دفع أُجرة ثلاثة أشهر مقدمًا... سكتتْ قليلاً ثم تابعت: أتظنني غبية لكي لا أعرف ما الذي يجري... قلت لها: أيًا كان الأمر أرجو أن نطوي الحديث في هذا الأمر... قالت: أريد أن أعرف فقط... قلت: ماذا تعرفين؟ طالما أن الأُجرة دُفعت فلماذا هذا التركيز على من دفع... قالت: أنا لا أنام الليل وقلقة دائمًا لأني لا أعرف ما الذي يدور، أرجوك، قل لي...قلت: سأقول ذلك في حضور مارلين... قالت: حسنًا.

قامت من فورها واتصلت بمارلين... وقالت لها عند حضورها: أريد أن أعرف... لم تكمل حديثها حتى قالت مارلين: أعرف ما

الذي ستقولينه ، إن النقود مني... قالت : أنا لا أصدِّقكما... قلت لها محتدًّا : ما الذي تريدين أن تعرفيه؟ ، وكفي عن اصطناع الخلافات والخناقات مع بعضنا البعض لأتفه الأسباب ، أنا دفعت المبلغ ، ولن تدفعي منذ الآن أُجرة شقتك إلا مني ، فقد عشتُ معكِ ردحًا طويلاً من الزمن ، ولو أني أمضيت عمري أدفع أُجرة للشقة ما سدَّدتُ ما عليَّ من ديون ... سرحتْ بعيدًا ، نظرتْ إلى أرضية الصالة وسكتت طويلاً لدرجة أنني خفت أن تكون قد خرست عن قول الكلمات... بعد برهة رأينا دموعها تنفرد على خديها مثل شلال مائي... قلت : هلا هدأتِ قليلاً ، اسمعي ، قريبًا ستصبحين زوجتي ، ونحن من عاداتنا أن نرفد بيوتنا بمصاريفها سواء كان أُجرة بيت أو طعام أو ما يلزم هذه الحياة ، فإن رأيتِ أننا نعيش في العصر الحجري فاحتجي ، وإلا هذه هي حياتنا ونحن نحترم عاداتنا وتقاليدنا... قالت بعد أن مسحت دموعها : أنا لا أبكي حُزنًا ، ولكني أبكي فرحًا ، إذ أجد أُناسًا يفكِّرون مثلي تمامًا ، فأخيرًا وجدت من يضاهيني في أفكاري وفي عيشي... ثم قامت إليَّ وقبَّلت رأسي وقبَّلت رأس مارلين ، فبكتا سويًا... أمَّا أنا ، فقد تملكني الضحك مما جعلها تنظر إليَّ مغتاظة.

(١٦)

نجاحي الذي أوردته قد جعلني مثل ثورٍ في ساقية ، أدور حول نفسي وأعمل ست عشرة ساعة في اليوم، فبعد أربع سنوات من إصدار الغضب ؛ أخذني العمل بعض الشيء ، فكنتُ أزورها لمامًا كلما وجدت فرصة للقائها أتصل بها أو أذهب إليها ، وكانت هي التي تقودني لذلك ، إذ كانت تقول لي : أنت لم تزل شابًا ، استغل هذه الفرصة ولا تتأخر عن العمل ليلاً ونهارًا حتى تنجح.

بدأتُ بزيارتها كل يومين مرة، ثم تفاقم الأمر إلى مرة في الأسبوع ثم مرة كل أسبوعين ، ولكني لم أتجاوز ذلك... وفي يوم طرقت باب صديقتي في البيت فلم أجدها... لعدة أيام وأنا ابحث عنها وعن صديقتها ولا أجد لهما أثرًا... وأخيرًا ذهبت إلى نادي (العجائز) – كما كنت أسمِّيه – علَّني أجدها وصديقتها ، فأخبرتني إحداهن أنها في المستشفى... ذهلت ، لماذا لم تخبرني ؟ ، أو على الأقل أن تنقل لي صديقتها مارلين ما الذي يحدث... ذهبتُ إلى المستشفى ، وبصعوبة استطعت أن أقنع طبيبها أن أراها ، فقد كان يمنع عنها الزيارة، واشترط الطبيب أن لا تدوم الزيارة أكثر من خمس دقائق ، سألته ما الأمر ، قال : ليس لي إلا أن أقول :

فليساعدها الرب.

دخلت إلى غرفتها ، كانت ملقاة على السرير وعلى فمها جهازٌ للتنفس ، أما صديقتها مارلين فقد كانت في الغرفة إلى جانبها لخدمتها... نظرتْ إليَّ بعينين زائغتين وحاولت أن تنهض قليلاً ، فمنعتها مارلين من ذلك... أسرعتُ إليها واحتضنت رأسها وقبَّلته ، فابتسمت بصعوبة... وما كدت أن أسأل مارلين عمَّا بها حتى دخل الطبيب وقال : انتهت الزيارة... قلت له : أعطني دقيقتين أخريين... قال : لا أستطيع ، يجب أن تنصرف ، ثم استدرك : ماذا يجمعك بها ، أهي زوجتك ؟... قلت : كلا يا سيدي ، فأنا صديق لها... قال : لا أستطيع السماح لك بأكثر من هذا الوقت... قالت لي مارلين : غادر ، وانتظرني عند باب الغرفة فسآتي اليك... عندما غادرت كانت عيناها مغمضتين ، قلقتُ جدًا ، ذهبتُ إلى الصالة قرب الغرفة وانتظرت.

تأخرت مارلين بعض الوقت ، ولقد فكَّرتُ أن أدخل إلى الغرفة بعد أن غادر الطبيب ، ولكن الأوامر في المستشفيات الأمريكية هي الأوامر ، قلت لنفسي : لأنتظر قليلاً علَّني أطلب الإذن من طبيبها ثانية... جاءت مارلين على عجل ، فبادرتُها : ما الذي جرى؟ ما الذي أوصلها إلى هذا الحال؟ وما مرضها؟... قالت :

كنت عندها قبل أيام ولم يكن بها شيء يُذكر، داعبتني وقالت: إني أشعر بالراحة الليلة، فلا ألم أو وجع... قلتُ: فما الذي بدا؟ قالت مارلين: إنها لم تزل في مراحل التأكد من المرض، لا أثر للتحليلات حتى الآن، ولكنها تعاني من ألم شديد... قلت: أين الألم؟... قالت: في أنحاء مختلفة من جسمها، ويعطونها أدوية مضادة للآلام حتى تهدأ... قلت لمارلين: هل أستطيع رعايتها بنفسي؟... قالت: إنني أرعاها، وقد رفض الأطباء الزيارة عنها.

نظرت إلى عيني مارلين فرأيتها تبكي، ورغمًا عني سقطت دمعة من عيني، فبادرتْ مارلين إلى إعطائي ورقة لأمسح دمعتي... قلت لها: أنتِ تعرفين شيئًا وتخفينه عني... قالت: أحلف لك أن نتيجة التحليلات لم تزل في المختبر.

في غضون ذلك جاءت ممرضة لتدخل غرفتها وطلبت إليَّ الذهاب من مكاني، فقالت لي مارلين: سأقابلك الليلة في بيتها.. قلت: لن أغادر المستشفى، سأبقى في موقف السيارات وأرجو أن تطمئنيني بين الحين والآخر... قالت: لا فائدة من بقائك هنا، هذا إضافة إلى انني لن أخبِّئ عنها أنك موجود في المستشفى، وقد تغادر سريرها إن استطاعت لكي تأتي إليك... قلت: لا تسمحي لها بذلك، إنها ضعيفة جدًا... قالت مارلين: سوف لن

تُلقي بالاً لي ، أعرفها جيدًا ، اذهب راشدًا ولسوف أراك الليلة ، سأغادر عند الساعة التاسعة مساءً وهو موعد عودتي للبيت فأتركها في رعاية ممرضة بالمستشفى ، وسأصل إليك في غضون نصف ساعة... في غضون ذلك سمعت طبيبًا يتحدث باللغة العربية إلى ممرضة هناك ، هرعت إليه وقلت له : يا سيدي ، لي مريضة عندكم ، وقد منع الطبيب زيارتي لها ووافق على خمس دقائق فقط... قال الطبيب: لا أستطيع أن أفعل لك شيئًا ، لستُ طبيبها لأسمح لك ، أرجو أن تتفهم موقفي... قلت : لدقائق فقط... قال: لا أستطيع... ثم غادر مكانه.

عند الساعة التاسعة والنصف ليلاً كنت أنظر إلى موقف السيارات علَّني أرى سيارة مارلين... تأخرتْ قليلاً ، فازداد قلقي... وعند العاشرة وبضع دقائق جاءت مارلين ، رأيتُها من خلال النافذة المطلة على الموقف ، هرعتُ إليها نزولاً عن سلم البيت ، قابلتها عند سيارتها وقلت لها ملهوفًا : طمئنيني... قالت : الحال كما هو... قلت : هل جاءت نتيجة الفحوصات ؟... قالت : قال الطبيب أنه سيكون عندها الساعة الخامسة صباحًا ، وأنه سوف يعطيها نتائج التحليلات...

غادرتني مارلين إلى بيتها عجلة ، قالت إنها تشعر بالتعب ولا

تستطيع أن تتحدث إليَّ أكثر من هذا.

ذهبتُ إلى غرفتي في منْزلها ، وحاولتُ النوم ، ولكني لم أستطع ، كنت أرى البيت موحشًا كأنه مهجور منذ زمن، أين ضحكتها التي كانت تملأ البيت بالمرح والسرور؟... يا إلهي، لو كنت أعرف ما الذي بها علَّ قلبي يهدأ.

كنت أسرح في صالة البيت جيئةً وذهابًا ، انتابتني الظنون ، أخشى أن يكون مرضها من النوع الذي لا شفاء منه، فالمؤشرات تدل على ذلك ، حتى جسدها لا تستطيع أن تحرِّكه... يا إلهي ، ما هذه المصيبة التي حلَّت بي وبها؟.

انتصف الليل ، تذكرتُ أنني لم آكل طعامًا منذ الصباح ، فتحتُ ثلاجتها فإذا بها فارغة إلا من بعض أرغفة وبعض المربى ، قلت لنفسي : يبدو أنني قصَّرت في تموين البيت ببعض الطعام ، ولكني تذكرت أنني رفدت البيت بما يحتاج الأسابيع التي مضت... لم أستطع أن آكل إلا لقمتين اثنتين ، وعزفت عن مواصلة الطعام.

كان الجو باردًا ، أدرتُ مفتاح التدفئة فإذا به معطَّل لا يعمل ، ثبت في يقيني أن الغاز مقطوع عن الشقة ، ولكني تساءلت : كيف يكون الغاز مقطوعًا والكهرباء تضيء البيت بألوانه الزاهية

تمامًا كما تركته منذ أيام ، جاءتني بعض الأفكار أن في أمريكا يفصلون الغاز عن الكهرباء ، عولت أن أذهب إلى الطابق السفلي من باب البيت الخلفي لأختبر جهاز التدفئة وأن الغاز يعمل، وعندما ولجت وأشعلت الضوء؛ كان خزان الماء منطفئًا، أشعلتُه، وأدركت أنني إذا ما صعدت إلى الطابق العلوي سوف يعمل، وهكذا كان... غير أني وبعد ساعة لم أشعر بالدفء، إذن هناك عطل، ولكني تحسست أنابيب الماء الساخن فإذا بها تعمل، ولكثرة لهفتي ظلَّ البرد ينتابني، تدفأتُ ببطانية ولففتُ نفسي بها.

بدأ الثلج يتساقط ، نظرت من النافذة فإذا الأرض قد أصبحت بيضاء ناصعة ، قلتُ في نفسي : فلأدلف إلى المستشفى علَّهم يسمحون لي بمكالمتها... لكني أدرتُ قرص الهاتف وانتظرت دقائق خلتها أيامًا... بعد أن أعطيت عاملة المقسم رقم الغرفة واسم المريضة قالت : آسفة يا سيدي ، هناك تعليمات من الطبيب أن لا يتصل بها أحد... قلتُ كاذبًا : إنها زوجتي ، أريد الاطمئنان على صحتها... قالت : آسفة يا سيدي ، هذا إضافة إلى أنها نائمة ، وقد تحدثت إلى إحدى الممرضات فقالت لي إنها نائمة ، فقد أعطاها الطبيب حبوبًا للنوم ولا نستطيع إيقاظها... قلت : حسنًا، أشكرك.

(١٧)

اتصلتُ بصديقتها فلم تجب... نظرت إلى ساعتي فإذا بها الثالثة صباحًا ، حدثت نفسي : هل أنا مجنون ؟ ، أتصل بمن أرهقها التعب كي ترد على مكالمتي في هذا الوقت... أقفلت الخط وحاولت النوم ثانيةً... غير أن ذلك لم يعد مُتاحًا.

بقيت ساهرًا حتى الصباح ، كانت الساعة قد بلغت الثامنة صباحًا عندما غادرتُ المنْزل ، قلت لنفسي : سوف أمرُّ على مكتبي لأرى بداية العمل فيه ، ومن ثم أغادر إلى المستشفى.

وما أن دلفت إلى المكتب حتى سمعت رنين الهاتف ، وإذا به صوت مارلين ، قلتُ بلهفة : ها مارلين ، أهناك أخبار جديدة ؟... قالت : رأيت رقمك على منظومة هاتفي... قلت : أنا آسف يا مارلين ، كنتُ قلقًا طيلة الليل فقلت أتصل بك لأطمئن.. قالت : أتعتقد أنني يمكن أن أجيبك عند الساعة الثانية وأربع وخمسين دقيقة ، كنت نائمة وأعاني من التعب... قلت : آسف ثانية... قالت: لا بأس ، ثم تابعتْ: سوف أذهب إلى المستشفى بعد ساعة، إذا ما كانت لديك أسئلة أو رسالة لها سأبلِّغها... قلت : هذا لا

يفيد ، أريد أن أراها بأية وسيلة... قالت : مستحيل... قلت : حاولي، فإن نجحتِ فاتصلي بي... قالت: سوف أفعل.

وصلتُ إلى المستشفى ، وعندما قدَّمتُ طلب الزيارة لعاملة التسجيل في الدور الأول قالت : أنا آسفة يا سيدي ، ممنوع زيارة هذه المريضة... قلت: لقد أتيت بالأمس وزرتها... قالت: اليوم غير الأمس، هناك تعليمات بأن لا يزورها أحد، ربما بعد الظُهر... قلت : لن أنتظر حتى بعد الظهر... قالت : أنت وشأنك ، المهم أنصحك بألا تحاول... قلتُ منفعلاً : كيف تمنعونني من زيارتها ؟... قالت : ماذا تكون لك ؟... قلت : إنها زوجتي... ضحكت وقالت : السيدة غير متزوجة... قلت متداركًا : إننا على طريق الزواج... قالت : آسفة ، ثم أشارت للحرس المدني أن يأتي، فنظر إليها فقط وجاء إليَّ ليقول لي: نحن نأسف يا سيدي.

كنت بالأمس قد علمت من مارلين أن نتيجة الفحوصات سوف تظهر صباح ذلك اليوم، وقد دفعني فضولي أن أبقى في موقف السيارات أنتظر مارلين لكي تعلمني ما الذي يحدث ، غير أن مارلين لم تظهر ، ولم أستطع مكالمتها أو مكالمة صديقتي في الغرفة...

بقيتُ حتى منتصف النهار أتقلَّب على جمرٍ حتى الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرًا... فكرت أن أذهب لمكتبي، ولكني بعد التفكير عزفت عن ذلك، أريد أن أعرف ما الذي يجري...

بعد نصف ساعة جاءت إليَّ مارلين لاهثة... قالت: دعني أسترح قليلاً في سيارتك، فموقف السيارات واسع وعريض وقد أتعبني السير إليك... قلت: أخبريني، ما الذي يجري؟... قالت بعد أن تنفست عميقًا: لا أريد أن أفسد عليك يومك، إن مرضها خطير جدًا... قلت: ما الذي تقولينه؟... قالت: إن نتيجة الفحوصات أظهرت أنها مصابة بورم في المخ، وهذا يقتضي إجراء عملية سريعة لها، ولكن العملية خطرة جدًا، فإمَّا أن تعيش بعد إزالة الورم، وإما أن..... قلت صارخًا: لا تكملي... قالت: إنه قدر الله، لا يستطيع أحد أن يمنعه... قلت: وما العمل؟. قالت: لقد استفاقت ووافقت على إجراء العملية... قلت: لا تستطيع إلا أن توافق فقد وُضِعت بين خيارين؛ إما الموت وإما العملية... قالت: الله هو الشافي، ادع لها، إنها تحبك حُبًّا عظيمًا، ثم تابعت: قبل أن أنقلها إلى المستشفى قالت لي وكلانا نسهر في بيتها: إن هذا الرجل قد ملك عليَّ لُبِّي، لا أستطيع أن أنساه، كنت أحبه كأخ في البداية، ولكنه اليوم معشش في ثنايا عقلي وجسدي...

داهمتني دمعة فلم أستطع إخفاءها، قلت : ومتى ستجرى العملية؟ قالت : عند منتصف هذه الليلة... وهناك أمر آخر أريد قوله : لقد سمحوا بزيارتها قبل العملية، بإمكاننا أن نذهب الآن إليها... قلت : هذا مؤشر خطر يدل على أن حياتها على كفِّ القدر... قالت : اظن ذلك.

بعد لأي دلفتُ إلى غرفتها ، هرعتُ إلى سريرها... ابتسمتْ بعذوبة وقالت بضعف : أهذا أنت ؟ لِمَ تأخرتَ عني ؟.. قلت بعد أن أحنيت رأسي إلى رأسها وقبَّلته : مارلين تعرف أنني هنا منذ الصباح ، وأنني حاولت المستحيل ولكنهم منعوني من الزيارة... قالت : أعرف ذلك ، فقد كانت الممرضة تخبرني بوجودك... كانت مارلين تقف إلى جانبنا ، وتنظر إليها والحزن بادٍ على محياها... قالت صديقتي : أريد منك شيئًا ، هل تنفِّذه لي ؟... قلت : في الحال... قالت : أريدك أن تضمني إلى صدرك الساعة... قالت مارلين بسرعة : لا ، الطبيب منع عنك ذلك ، سوف تظلين مستلقية حتى يأتي الطبيب... لكني لم أصغ لمارلين ، هرعتُ إليها واحتضنتها ورفعتُ رأسها عن المخدة وقبَّلتها في خدها مرتين... ابتسمت وقالت : الآن أنا مستريحة ، أعرف أنني سوف أتعافى بعد العملية ، ثم تابعتْ : هل نتزوج بعد أن أُشفى

من مرضي؟... قلت : نعم، سنفعل.

جاء طبيبها ورآني أحتضن رأسها فابتسم وقال : أنا آسف يا سيدي، قد منعتُ عنك الزيارة لأنني أعرف أنها لن تحتمل، إن العواطف في مثل هذه الحالة يمكن أن تؤذيها... ثم تابع : لستَ أنت وحدك، بل منعت الزيارة عنها لكل من يأتي لرؤيتها... قلت : لا يوجد من يعرفها إلاي ومارلين... قال : بل هنالك الكثير من المكالمات أتت من سيدات يُردن رؤيتها فمنعتهن من ذلك، أنا أقوم بواجبي... قلت : لا يلومنك أحد، أنت أدرى بمهنتك الإنسانية... قال: بإمكانك البقاء هنا ساعة، وإن شئت المغادرة فغادر... قلت :أشكرك يا سيدي، هذا جميل لن أنساه أبدًا.

قلت لمارلين: بإمكانكِ الذهاب، سأبقى إلى جانبها طيلة اليوم، خذي قسطًا من الراحة... قالت : لقد أخذت إجازة من عملي مدتها أسبوع، وسأبقى إلى جانبها، لن أغادرها، ولسوف أظل لأعرف نتائج العملية.

جاءت الممرضة بشيءٍ من الدواء، فقلتُ لها : أنا من سيعطيها الدواء، أرجو أن تسمحي لي... قالت: لا بأس، أنا أناولها الدواء

وأنت تناولها كوب الماء... قلت باسمًا في وجه صديقتي : هل توافقين يا حبيبتي؟... ابتسمت ابتسامة واسعة وقالت : أجمل ما سمعت طيلة عمري، أبقاك الله لي... ثم رأيت الحزن على وجهها فتابعتْ : هذا إن بقيتُ حيَّة.

(١٨)

جاء الطبيب على عجل ودخل الغرفة وقال منفعلاً : أرجو أن تغادرا الغرفة ، لقد تغير موعد إجراء العملية بدلاً من منتصف الليل ، علينا أن نأخذها إلى غرفة العمليات الآن... نظر إلى الممرضة التي ترافقه وتابع ناظرًا إلي : لقد أحضرنا لها طبيبًا مختصًا من المستشفى الرئيس في نيويورك ، وهو خبير بمرضها ، وعندما قرأ احداثيات المرض قال : سوف نجري العملية الآن ، لا مجال للتأجيل ، فكل ساعة من عمرها تحسب بالوقت... قلت له : هل أستطيع البقاء هنا أثناء العملية ؟... قال : نعم تستطيع ذلك ولكنك لن تدخل إلى غرفة العمليات ، ابق خارجها وسنعلمك بالنتيجة... ثم نظر إلى مارلين وقال : يا سيدتي ، إني أقدِّر لكِ مساعدتك لصديقتك ، في غيابك تمدحكِ دائمًا... قالت مارلين باكية : إنها أعز صديقاتي ، ولن أبرح من هنا حتى أرى النتائج... قال لها : معك حق ، ولكن ابقِ مع هذا الصديق الواقف هنا ، وأشار إليَّ.

انسحب الطبيب ، وقالت لنا الممرضة : اذهبا خارج الغرفة أريد أن أستبدل ملابسها بالفضفاضة لسرعة إجراء العملية دون

تعقيدات... نظرتُ إلى وجه صديقتي فإذا بها تعاني، تفتح عينيها مرة وتغمضهما أخرى... ثم... انسحبنا وتركناها مع الممرضة.

كانت الساعة قد بلغت الثانية والنصف بعد الظهر... رأيناها تسير بسريرها نحو غرفة العمليات، ولكنها كانت غير واعية لما يجري، فقد أُعطيت مخدرًا قبل نقلها، تابعناها حتى أوصلناها مع الممرضة إلى غرفة العمليات... قالت الممرضة: أرجو أن تجلسا في الصالة القريبة من الغرفة ولسوف أخبركما بما يجري تباعًا.

نظرتُ إلى ساعتي وقلت لمارلين: ها قد مضت أربع ساعات دون أن نعلم شيئًا... كنت كمن وضع يده في جمر ولا يستطيع أن يسحبها، تكويني فإذا بي أستعذب ذلك وأستعجل انتهاء عمليتها لأرى النتائج.

مضت ساعة أخرى، وسادسة... ولكن، لا أثر لأحد... قالت مارلين: هل أحضر لك كأسًا من الشاي الساخن علّك تستطيع الصبر قليلاً؟، ألم تر نفسك وأنت تسير بين المقاعد كأنما فقدت شيئًا؟، ألم تلاحظ أن الزُوار ينظرون إليك بشيء من القلق... قلت: بلى، ولكني لا أستطيع الجلوس، فلربما جاءت الممرضة لإخبارنا النتائج... قالت: إنها تعرفنا سويًا، ومن المؤكد أنها

سوف تأتي إلينا مباشرةً، فلا تتعبني وتتعب نفسك.

نظرتُ إلى وجوه الناس في الصالة فإذا بها منصبَّة على قامتي، تأكدتُ أن كلام مارلين صحيح، غير أني لم اعبأ بذلك، وقلت لمارلين: دعهم ينظرون إليَّ، ليس في ذلك بأسًا، قلت لكِ لا أستطيع الجلوس وهي على الحال الذي رأيت.

نظرتُ إلى مارلين ثانيةً، كانت تتمتم بكلمات غير مسموعة، فقلتُ لها: ما الذي تقولينه؟... قالت: إني أدعو لها وأقرأ بعض آيات من الإنجيل... قلت مبتسمًا ابتسامة صفراء: وأنا ما الذي أقرأه؟... قالت: أنت تقرأ قرآنك وأنا أقرأ انجيلي... قلت على سبيل تغيير الموضوع بشيءٍ من الفكاهة: علينا أن نُحضِر يهوديًا ليقرأ التوراة أيضًا... قالت بابتسامة مُرَّة: هل تمزح في هذا الوقت؟ إن قلبي يبكي... قلت لها: وهل رأيتِ قلبي يا مارلين؟ إنه يكاد يتفتت... قالت: أعلم ذلك، كان الله في عونك... قلت: وفي عونها أيضًا، أريد أن أراها صحيحة الجسم تسير في بيتها كأنها عروس ليلتها، أريدها لي، أريد أن أتزوجها، ولو اجتمعت كل عقبات الأرض لن تثنيني عما وعدتُها... قالت: اجلس بجانبي سأخبرك بقصص لم تقلها لك... جلستُ إلى جانبها مذهولاً... قالت: أتعرف، كنا نتحدث عنك طويلاً في غيابك،

كانت تقول لي: يعجبني في هذا الرجل عفته مع أنه مثل حصان جامح... ضحكتُ... تابعتْ: قالت لي في ليلة: أتعرفين يا مارلين ما أمنيتي في هذه الحياة؟... قلتُ لها: ماذا؟... قالت مارلين: كان أمنيتها أن تلتقيا جسديًا، كانت متشوقة مثل عاشقة لم تر عشيقها منذ آلاف السنين... ولكنها كانت تبتسم بشيء من السخرية وتتابع: أعرف أن الإنسان ضعيف في مثل هذه الحالة، ولكن هذا الرجل أقوى من الصخر... قلت: هذا مديحٌ لا يليق بي، فأنا إنسانٌ رقيق القلب يزعجني منظر طفل يريد لعبة ولا نقود معه ليشتريها، أبكي بحُرقة عند أول وهلة عندما أرى إنسانًا يعاني، دمعتي قريبة جدًا، وهي أقرب إليَّ من نفسي... قالت مارلين: وهذا ما كان يعجبها كثيرًا، إذ كانت كلما تتحدث إليك بشيء يخصها ولا تستطيع تحقيقه تناولك المحارم الورقية كي تمسح دموعك... قلت: لا أدري أهو ضعف بي أم قوة؟... قالت مارلين: إن أقوى الرجال هو الذي يبكي عندما تهتز كل جوارحه فلا يخفى ضعفه... قلت لها مازحًا: أنتِ فيلسوفة يا مارلين، لا يقول هذه العبارة سوى فيلسوف متمكن... قالت: علَّمتني هذه الحياة الفلسفة على أصولها، إنني أقرأ كثيرًا، ولقد تأثرت بتلك الكتب وعلمت أن أفضل ما

يفعله الإنسان أن يقرأ، إن الكتب حياتي، ولا أُلقي بالاً للجرائد السيارة التي لا تعطيك شيئًا سوى الأخبار... قلت : وصحافية أيضًا ؟... قالت : الثقافة هي الأصل... قلت : وماذا بعد ؟... قالت : احتاجت مرة لبعض النقود كي تشتري شيئًا ، لم يكن معها ما يكفي ، سألتني إن كنتُ أمتلك النقود ، عددتها فإذا بها أقل مما تطلب ، قلت لها : ما رأيك أن نهاتف وليد كي يحضر لنا شيئًا من النقود : قالت : أنتِ مجنونة ، لو مددت يدي إلى الناس كافة ما مددت يدي إليه ، إن حمله ثقيل ، أولاده يطلبون النقود دومًا لكي يعيشوا في بلاده ، أتريدين لي أن آخذ لقمة الصغار من أفواههم... قلتُ لمارلين : هذا يؤلمني جدًا ، إن معي من النقود ما يكفيني ويكفيها وأولادي... قالت : هي تعرف ذلك ، ولكنها لا ولم تطلب... قلت : ليتني كنت أشعر بها عندما تحتاج ، كانت توهمني أنها امرأة تكتنِز النقود في البنك ، ولم أكن أعرف أنها تعاني ماديًا... قالت : على رسلك ، لا تتأسف لأمر لا تعلمه... قلت : إن ذلك يجعلني أسخر من نفسي ، آوتني في بيتها عندما كنت دون بيت ، وأطعمتني عندما كنت جائعًا ، وواستني في كل مصائبي التي حدثت لي ، كانت تنتظرني إلى منتصف الليل ولا تنام أبدًا إلا عندما أدقَّ الباب أو أفتحه ، يا لها من امرأة ، أرجو

الله لها العافية.

جلسنا أنا ومارلين نحدِّق في وجهينا وفي وجوه الناس ، لم نجد كلمات تُقال... ثم قالت مارلين فجأة : مضى من الوقت ما يقرب الثماني ساعات ، لقد بدأ الليل يرخي سدوله ، ألم تجع ؟... قلت : لا حاجة بي للطعام ، أريد أن أرى نتائج العملية.

رأينا الممرضة تخرج من غرفة العمليات فأسرعنا إليها سويًا... سألناها عن الوضع فقالت : هناك ساعتان أخريان كما قال الطبيب ، إنها عملية معقدة... قلت لها : هل تكلمتْ أثناء العملية؟... قالت مبتسمة : كيف تتكلم وهي تحت تأثير مخدر قوي ، ولكن الأمر المطمئن أنها كانت تتنفس بارتياح... قالت مارلين : الله معها.

انسحبت الممرضة وقالت : سوف أعود ، هناك طبيبان اثنان يرافقان الطبيب الرئيس ذهبا لتناول شراب ساخن وسيعودان قريبًا ، أمَّا أنا فإني جائعة ، أريد أن آكل شيئًا ومن ثم أعود إليكما... قالت مارلين : حسنًا ، سأحضر لك كأسًا من الشاي الساخن أو بعض القهوة... قلت : حسنًا ، قهوة من فضلك ، إن رأسي يكاد ينفجر.

(١٩)

ذهبت مارلين لإحضار القهوة ، وعادت الممرضة إلى غرفة العمليات... وبعد لأيٍ جاءت لتتحدث إلى مارلين ، ولكنها لم تجدها ، سألتني : أين ذهبت؟... فقلت لها : إنها تبحث عن القهوة في الكافتيريا... قالت : حسنًا ، العملية كما قال الطبيب ناجحة ، ولكنها سترقد في المستشفى لفترة ليست وجيزة للتأكد من سلامتها ، ولكي تتمكن من التغلب على مجريات العملية الصعبة، سوف لن تستطيعا رؤيتها لأن الطبيب قد منع زيارتها لثلاثة أيام على الأقل... جاءت مارلين ، فأخبرتها بما جرى... قالت : لن أغادر إلا عندما أراها خارج غرفة العمليات...

انتظرنا حتى رأينا سريرها تردفه الممرضة بلطف متجهة إلى غرفتها... حاولنا النظر إليها ، لكنها كانت تغط في غيبوبة ، كان وجهها مثل ملاك يريد أن يطير في فضاء المستشفى ، فقد كانت مبتسمة الثغر كأنما هي راضية عما جرى لها وبها.

وقفنا خارج غرفتها بناء على أوامر الممرضة، قالت لنا بعد قليل: أرجو أن تغادرا ، فلن تستفيق قبل ساعات ، وسأقوم على

خدمتها حتى تأتي مارلين غدًا، فإن وافقوا على زيارتها كان ذلك، وإلا عليها المغادرة... قالت مارلين: ولكني استأذنت الطبيب أن أخدمها طيلة مدة وجودها في المستشفى... قالت الممرضة: كان ذلك قبل العملية، فهي بحاجة إلى من يقف بجانبها من الممرضات كي تعطيها الدواء المناسب في كل آن كما أمر الطبيب... قلت للممرضة: هل نستطيع حتى القاء نظرة عليها ؟... قالت : ما الفائدة من ذلك ؟... قلت : أريد أن أطمئن إلى أنها تتنفس بارتياح... ابتسمت الممرضة ونظرت إلى وجهي بارتياح وقالت: قالت لي إنكما سوف تتزوجان ، هل تحبها ؟... قلت : إذا ما أصابها مكروه أتمنى أن يصيبني ويبتعد عنها... قالت الممرضة: ما هذا الحب؟، لماذا لا يُسجل في موسوعة جينيس؟.

غادرنا معًا... قالت لي مارلين: إن سيارتي تقف ليس بعيدًا عني، أما سيارتك فإنها في أخر الموقف، دعني أوصِّلك إليها... قلت: لا بأس... وعند وصولي إلى سيارتي غادرتْ مارلين مسرعة فقد كانت تعبة، أمَّا أنا فبقيت في سيارتي لأكثر من ساعة وقد داهمني التفكير العميق دون أن أتوصل إلى نتيجة يمكن أن تساعدها ، فهي بين يدي الأطباء لا نستطيع زيارتها إلا بإذن منهم.. وأخيرًا، تحركت بسيارتي إلى خارج الموقف... فكرت في أن أذهب إلى

بيتي ، وفكرت أيضًا في الذهاب إلى بيتها ، قلت لنفسي : لن أستطيع أن أرقد أو أنام وهي غائبة عن بيتها ، إنه موحش إلى درجة لا أستطيع معها الاحتمال ، فلأذهب إلى بيتي وعند الصباح آتي إلى بيتها فأحادثها من هناك ، فإن سمحوا لي بمحادثتها فعلت ، وإلا ، سأحاول مرات ومرات.

لم يكن هنالك في ذلك الزمان اتصالات كما هي اليوم ، فقد كان عليك إن أردت المستشفى أن تطلب المقسم أولاً ، ومن ثم تحادث من تقوم على الخدمة لتسمح لك بمحادثة مريضة ما ، وعندها كافة التعليمات عن المرضى وزياراتهم إن كان مسموحًا للزوار أم لا.

عندما هاتفت المستشفى صباحًا ردَّت عاملة المقسم ، طلبتُ منها الزيارة ، فقالت : آسفة يا سيدي ، هذه المريضة غير مسموح زيارتها اليوم ، وربما غدًا أيضًا ، عليك بتأجيل زيارتك...

أغلقتُ الخط واتصلت بمارلين ، كانت تتأهب للخروج من بيتها فقالت لي : ألم تنظر إلى ساعتك ؟ ، إنها لم تتجاوز السابعة صباحًا ، كان يجب أن تتصل بها بعد التاسعة... قلت : لم أستطع صبرًا... قالت : عليك أن تكون عاقلاً فلا تجعلهم يعزفون عن قبول

زياراتنا لها إذا ألححنا... قلت: معك حق.

ذهبتُ إلى مكتبي، كان الوقت مبكرًا، ولكنني لم أنظر إلى أي ورقة هناك، كنت عازفًا عن أن أعمل ذلك اليوم.

اتصلتُ بأخي ورويتُ له ما جرى، قال لي كلامًا ظلَّ في ذاكرتي حتى اليوم: لا فائدة، هذا المرض خبيث، فإن استأصله الأطباء اليوم فإنه سوف ينبت غدًا... ثم أضاف: هذه المرأة وقفت إلى جانبك فلا تبتعد عنها، ارفدها بكل ما تريده، إنها نوع نادر من النساء في أمريكا... قلت: أنا كما قلت، أحاول بكل إمكاناتي مساعدتها كما ساعدتني، بل وأكثر، ثم تساءلت: هل مرضها مُعدٍ أم أنه عارض يختص بصاحبه؟... قال: لا أعرف، عليك بسؤال الطبيب... وتابع: لقد حدث هذا في عائلة قريبة لزوجتي أصيبت به فاستؤصل، ومن ثم بعد أشهر نبت ثانية، وعندما زرتُها في المستشفى كانت كأنما هي إنسانة أخرى، فقد سقط شعرها وحاجباها وغدت صفراء اللون كأنما هي من الأموات... قلت: يا رجل، اتصلت بك لتواسيني فإذا بك تهد عزيمتي... قال: اسمع، أعرف أنك تحبها، وهي حتمًا تحبك، ولكني أقول لك ما شاهدتُه وما رأيتُه رأي العين، ولكن ذلك لا ينسحب على كل المرضى، ربما كان مرضها من نوع آخر لا أعرفه،

فلستُ طبيبًا... قلت : على الأقل أعطني بعض الكلمات التي تشجِّعني... قال : أنت هكذا دائمًا لا تريد معرفة الحقيقة ، لقد قلت لك ما أعرف وما رأيت... قلت : على رسلك ، ثم تابعت : كيف العائلة ؟... قال أخي : لقد أخذك العمل منا فلم تعد تزرنا... قلت : أنت تعرف أني أوزع نفسي ما بين العمل وبين صديقتي وبين توزيع الجريدة وبين متابعة المعلنين والقُرَّاء ، ولا مجال لي إلا أن أهمد في سريري بعد عناءٍ طويل ، لقد أرهقني هذا العمل... قال : في أمريكا التي أصبحتَ تعرف الكثير عنها ؛ لا يمكن أن يعيش الإنسان دون عمل ، فأنت أو غيرك يعمل مثل الثور في ساقية ، فإن لم يعمل ويتعب ؛ فإن فواتيره سوف تتكدس عليه ولا يعرف كيف يسدِّدها ، إن نقودهم دائمًا في جيوبهم ، إنهم يعطونك النقود ويأخذون عمرك... قلت : لا تدخلني في السياسة ، فقد قرفتها منذ زمن... قال : أنا أقول لك الحقيقة... قلت : لسوف أظل على حالي حتى أُحضر الأولاد هنا ، فإني أُخطِّط لهم لمستقبل تعليمي رائع... قال : أعرفك ، أنت تحبهم إلى درجة الجنون... قلت : أليسوا أولادي؟... قال : على مهلك ، إن ظللت على هذا الحال فإنما تفقد كل مقومات العمل بعد فترة وجيزة ، اهدأ يا رجل ، النقود ليست كل شيء في هذا العالم...

قلت : ليتني بقيت على بيع السمك ، فإن ذلك أفضل ألف مرة من الجريدة... قال : ما الذي يمنعك أن تعود إليه ؟... قلت : أصبح الناس يعرفون الجريدة ولا أستطيع أن أتركها نهبًا للإهمال. قال : على أية حال أنت مدعو للغداء عندنا غدًا... قلت : لا حاجة لي بذلك ، فإن صحة صديقتي لا تجعلني أتناول الطعام بلذة وتحبب ، أجّلها ليومٍ آخر... أغلق خط الهاتف ، ثم ما لبث أن اتصل بي ، قال : إننا ذاهبون في الغد إلى حديقة الحيوان في يانكرز ، هل تصاحبنا ؟... قلت بعد تفكير : حسنًا ، دعني أتصل أولاً بالمستشفى فإن منعوا زيارتي لها سوف أرافقكم.

بعد ثلاث ساعات اتصلت بالمستشفى وأعلموني أن زيارتها لم تزل ممنوعة.. اتصلت به ثانيةً وقلت له : حسنًا ، سوف أرافقكم.

في حديقة الحيوان كنت تائهًا ، وتذكرتُ أنها قالت لي يومًا إنها ستأخذني إلى هناك ، وخلتُها إلى جانبي... لم أفهم من كلام عائلة أخي شيئًا ، كانوا يحدثونني وأنا سارح الفكر لا أستطيع الإجابة. قال لي : لقد أحضرنا معنا الغداء ، هل تأكل معنا ؟... قلت : لا حاجة لي بالطعام... قال : سأعطيك شريحة تأكلها وإلا هلكت من الجوع... قلت : لا بأس... لكني لم آكلها ، فقد ألقيتها في برميل للقمامة كان قريبًا مني.

عدنا عند الساعة السابعة مساءً، وأصرَّ أخي على أن أسهر مع عائلته، لم تكن لي رغبة في ذلك، ولكني طاوعته وذهبت إلى بيته... لاحظت زوجة أخي أنني شارد الفكر فقالت: لا تفكِّر كثيرًا، اترك أمر عباد الله لله... قلت: ونعم بالله.

في الساعات التي تلت سهرتُ حتى ما يقرب من منتصف الليل، وعلمت بعد ذلك عندما دلفتُ إلى مكتبي ليلاً ورأيت حافظة المكالمات؛ أن مارلين هاتفتني أكثر من مرة وتركت رسائل تقول لي فيها بأن صديقتها تتحسن باستمرار وقد استفاقت من غيبوبتها.

(٢٠)

فرحتُ كثيرًا عندما هاتفتني مارلين بعد ثلاثة أيام لتقول لي إن الطبيب وافق على أن نزورها... قلت : متى تذهبين إلى هناك؟.. قالت : أنا في الطريق إليها ، أرجو أن تأتي حالاً...

أدرتُ مفتاح سيارتي وفي ربع ساعة كنت هناك ، وما إن ولجت إلى موقف السيارات حتى أسرعتُ إلى المستشفى طالبًا زيارتها... قالت لي موظفة الاستعلام أن عليَّ الصبر لإن غرفتها مليئة بصديقاتها ولا مجال لزائر آخر... قلت : يا سيدتي ، أرجوكِ... قالت : إنها دقائق ويخرجنَّ، اصبر...

جلستُ إلى مقعد قُبالة الموظفة وقد بدا عليَّ القلق العميق... وبعد لأي رأيت الكثيرات يعدنَّ إلى الموظفة ببطاقات الزيارة ثانية ، فأشارت لي الموظفة بأن أذهب... بعد أن أعطتني كرت زيارة كتبتْ فيه اسم المريضة ومدة الزيارة التي لم تتجاوز العشر دقائق ، قلت لها : هذه الدقائق لا تكفي... قالت : إنها تعليمات الطبيب ، أرجو أن لا تتجاوزها... لم أجبها ، هرعتُ إلى المصعد. رأيتها وقد تغيرت إلى درجة اصفرار الوجه... وما ان رأتني حتى

رفعت يدها بشيء من الصعوبة تحية لي... قبَّلتها في وجنتيها عدة مرات، غير أنها كانت ضعيفة لدرجة أنها لم تستطع أن تتكلم إلا بصعوبة... كانت مارلين تقف إلى جانبي وقالت: قال الطبيب إن صحتها تتحسن باستمرار، فهو يأتي إليها كل ساعة...

قالت بضعف: قال لي الطبيب إنني سأخرج بعد أسبوع... قلت: لا تفكِّري كثيرًا بالخروج، يجب أن تستكملي علاجك هنا... قالت: بل استكمله في بيتي، لقد مللتُ المستشفى، أريد أن أرى بيتي وابني... وعندما لفظت اسم ابنها تنهدتْ بعمق، وقالت: لم يزرني منذ مدة طويلة، ولا أعرف لماذا عزوفه عني هكذا؟... قلت: نحن إلى جانبك، وسوف أقوم بالاتصال به عندما نغادر... قالت: كلا، لا تتصل به، فهو يعرف أنني في المستشفى، فقد هاتفته عندما أتيت إلى هنا، ولكنه لا يعرف أنني أجريت عملية معقدة ربما ذهبتْ بحياتي... قلت: نحن إلى جانبك ولن نغادرك أبدًا، سوف نكون عندك هنا وفي بيتك، أرجو أن تطمئني.

لم تستغرق الزيارة سوى خمس عشرة دقيقة، ثم جاءت الممرضة المشرفة وقالت: انتهت الزيارة، أرجو أن تذهبا... قالت مارلين: هل أبقى إلى جانبها؟.. قالت الممرضة: كلا، إنها أوامر الطبيب. خرجنا بعد أن أشرنا إليها بأيدينا: وداعًا...

توجهتُ إلى مخزن للتسوق ، واشتريت كميات من الطعام بحيث أملأ بيتها بما يحتاجه... جلستُ في منْزلها أكثر من ساعة... وفي غضون ذلك هاتفتني مارلين من بيتها لتقول : هل أنت في بيتك أم بيتها ؟... قلت : أنت ترين انك اتصلت بهاتفها ، فهل يعقل أن أكون في بيتي ؟ ، فرقمانا مختلفان... قالت : أتعرف ، لقد اختلط عليَّ الأمر ولا أعرف أين اتصلت بك ، وعلى أية حال فقد اتصل بي ابنها قبل دقائق ، قال لي بأنه اتصل بها في بيتها مرات عديدة فلم يرد أحد ، فاضطر لمهاتفتي... قلت : هل شرحتِ له الأمر ؟... قالت : نعم ، وهو يسعى لأخذ إجازة لزيارتها ، ربما وصل خلال يومين ، فأنت تعرف أنه في ولاية بعيدة بعض الشيء... قلت : اتصلي بها وأخبريها... قالت : لقد اتصلت بها فعلاً ، وقد فرحت لهذا الأمر.

كنا نزورها في كل يوم... وكانت صحتها تتعافى شيئًا فشيئًا... وكانت تطلب إلى الطبيب أن يعفيها من إقامتها في المستشفى في كل زيارة له ، لكنه كان يرفض... وبعد عدة أيام سمح لها الطبيب بالمغادرة شرط أن يرسل معها ممرضة إلى بيتها لأسبوع ، وافقت على ذلك...

وفي غضون الأسبوع الذي تلى وجود الممرضة أصبحت معافاة

تمامًا، وأصبح وجهها متوردًا كما كان، غير أنها كانت تشعر ببعض الألم بين آنٍ وآخر.

بعد بعض الوقت سألتها أن تخرج وأن لا تظل في البيت، ويجب أن تستنشق الهواء خارج المنْزل فإن ذلك يمكن أن يحسِّن صحتها... قالت: لنخرج... ارتدت ملابسها في غرفتها في وقت ليس قصيرًا... قلت: هل أهاتف مارلين لتخرج معنا؟... قالت: لا، دعني معك هذه الليلة لا أريد لأحد أن يرافقنا، ثم أردفت: سوف أتصل بها وأقول لها إنني خرجت معك، ولن تغضب مني. قلت: ما الذي تخطِّطين له؟... قالت: نأكل سويًا، ثم نعود إلى بيتي لتقضي الليلة معي... قلت: إذن هناك بعض الأعمال سوف أنفذها بعد عشائنا سأذهب إلى مكتبي لأرى سير العمل فيه، فالجريدة سوف تصدر غدًا، سوف أرى مواد هذا العدد ومن ثم آتي إليك سريعًا لنقضي ليلتنا في بيتك... قالت: أخشى أن يأخذك العمل فلا تأتي، من الضروري أن تكون معي... قلت: هل هنالك شيء معين ستقولينه؟... قالت: كلا، أشياء عادية ربما كانت مفيدة لي ولك... قلت: إذن لنذهب للعشاء.

كنتُ أرى يدها وهي ترتعش عندما تتناول العشاء... قلت لها: هل أنتِ تعبة؟... قالت: كلا، ولكن صحتي لم تزل ليست على

ما يرام، وأعرف أنني مع مرور الأيام سوف أتعافى كُليًا.. قلت: إذا كنت تشعرين بالتعب فسنأخذ عشاءنا معنا ونأكل في البيت. قالت: كلا، إني أرتاح لرؤية الناس هنا، فمنذ زمن لم أدلف إلى هذا المطعم.

ذهبتُ بعد العشاء إلى مكتبي، وهناك أمضيتُ ساعة، ومن ثم عدتُ سريعًا إليها...

في غضون ذلك قرع باب البيت، فإذا به ابنها... تعانقا سويًا... حكتْ له عن صحتها وكيف أنها أمضت في المستشفى مدة كافية وأجرت عملية معقدة... قال لها: إنك ترهقين نفسك، يجب أن تستريحي لبعض الوقت... قالت: لقد أخذت إجازة مرضية طويلة، وهذا يرهقني أكثر من المرض... قال: لن أستمر لمدة طويلة هنا، فقد أخذت إجازة مدتها ثمان وأربعين ساعة، يجب أن أذهب مع خطيبتي إلى بعض المحلات غدًا لشراء لوازم الفرح الذي سوف يتم خلال شهرين... قالت: لماذا تأخرت كل هذه المدة؟، كان يجب أن يتم ذلك في الأشهر الأربعة الماضية.. قال: هناك ظروف عمل جدَّت عندي فمنعت من أخذ الاجازات، وهذا هو السر الذي جعلني أبتعد عن زيارتك طيلة تلك المدة الطويلة... قالت: أعرف أن الوضع عندكم صعب.

جلس ابنها ما يقرب من ثلاثة أرباع الساعة، ثم غادر... بقيتُ وسهرتُ معها حتى ما يقرب من منتصف الليل... وفي غضون ذلك فجرَّتْ كلماتٍ من العيار الثقيل بعد أن جهزت نفسي للنوم في غرفتي... قالت: لن تنام في غرفتك، بل في غرفتي... نظرتُ إليها بشيءٍ من التعجب، فتابعت: أتعرف هذه أمنيتي، ولكني كنت أعرف أنك سترفض، وصدقني، أنت تنام على طرف السرير وأنام أنا على الطرف الآخر، ولن أقترب منك... ضحكتُ... فتابعتْ: أنت لا تصدِّقني... قلت لها: إني أثق بكِ، ولكني لا أثق بنفسي... قالت: ماذا تعني؟... قلت: هل أنا قطعة من الجليد لكي أنام على سرير واحد مع امرأة مثلك وأبقى على عذريتي معك؟.. ضحكت وقالت: عذريتك انفضت منذ زمن عندما أنجبت ذلك الكم من الأولاد والبنات.

(٢١)

نظرتُ إليها بشيء من البلاهة وقلت : عندما أتيتُ إلى أمريكا تركت حياة (الصياعة) أو قلتها بما معناه بالانجليزية...وقرَّرتُ أن لا تزوغ عيناي إلا على قوت أولادي ، وجاءني الفرج عندما شعرت صديقتي بدوخة بسيطة فحطَّت يدها على رأسها وقالت : إن رأسي تؤلمني... قلت : أرجو أن تنامي نومًا عميقًا ، فإذا ما كنت بجانبك فاني أعرف أنك لن تنامي أو تستريحي... قالت بعد أن تنهدتْ : معك حق في ذلك... ثم استدركت وقالت : يا لي من غبية ، لم أزل متوعكة... ثم تابعتْ : هل تنفذ وعدك ؟... قلت : أي وعد؟.. قالت : تتزوجني.. قلت : بلى ، عندما تتحسن صحتك سوف نذهب سويًا ونأخذ موعدًا لإجراء المراسيم وعندها لن أنام إلى جانبك فقط ، بل لن أجعلك تنامين لحظة واحدة... ابتسمتْ وقالت : يا لك من ثورٍ هائج... فانتابتني موجة من الضحك قائلاً لنفسي ، أي ثور هائج ؟ إني لا أكاد أفكِّر بالمرأة مطلقًا... ثم تابعتُ : ستكونين زوجتي ولن أغادرك مطلقًا إلا لعملي فقط.

بقيت إلى جانب سريرها حتى ذبلت عيناها ... قرَّرتُ أن أنسلَّ

خارجًا إلى غرفتي بعد أن سمعت تنفسها قد أصبح منتظمًا بعض الشيء، ولكنها كانت تفتح عينيها وتغلقهما مرارًا... وبعد أن ناولتها علبة الدواء فأخذت قرصين ثم تمددت بجسدها العاجي على طوله، وراحت في نوم عميق.

لم تستفق ليلاً، ولكني كنت أذهب إليها بين الحين والآخر فأضع أُذني على فمها فأشعر أنها ضعيفة التنفس، لكنها مع كل ذلك كانت تتنفس ولكن ببطء شديد، ولقد جاهدت أن أسهر إلى جانبها طيلة الليل لكي أطمئن عليها.

عند الصبح استفاقت من نومها، فرأت أنني أنام على كرسي إلى جانب سريرها، نادتني بصوت ضعيف... نظرت إليها بحسرة وقلت لها: هل نمتِ جيدًا؟.. قالت: ما يقرب من سبع ساعات، هذا يكفي، ولم أشعر بالألم هذه الليلة، كان كل شيء مريحًا، ويبدو أن وجودك في الغرفة معي قد طمأنني...

نهضتْ من سريرها بعد أن اتكأت على كتفي، فذهبتُ بها إلى الحمام وتركت بابه مفتوحًا، رأيتها وهي تضع المعجون على فرشاة الأسنان وتغسل فمها، قمتُ من فوري وأغلقتُ باب الحمام قائلاً لها: هل تحتاجين إلى مساعدة؟... قالت: سآخذ

حمامًا سريعًا ، أرجو أن تبقَ بجانبي ولا تغادرني... قلت : سأجلس في الصالة حتى تخرجي ، سوف أبقى طيلة هذا اليوم عندك ، فهناك من يقوم مقامي في عملي ، فلا تجزعي ، سأعطيكِ الدواء ، وسأطبخ لكِ حتى تأكلين... قالت : لا حاجة بي للطعام ، أريد بعض القهوة إن كنت لا تمانع... قلت : على الرحب والسعة.

تركتها بعد أن سمعت رشاش الماء في الحوض وذهبت لعمل القهوة... ولم تمضِ دقائق حتى سمعت سقوطًا في الحمام أزعجني ، فولجت إليه... كانت متكومة وعارية تمامًا مغمضة عيناها... ناديتها فلم ترد علي... صُعقتُ وظننت أن شيئًا مخيفًا قد حدث لها... حملتها وأدخلتها إلى غرفتها ، وعندما وضعتها في سريرها غطيتها بغطاء خفيف ، ففتحت عينيها قليلاً وقالت : لم أحتمل رذاذ الماء لأنه كان ساخنًا جدًا فزلقت قدمي ، كان يجب أن أطلب منك المساعدة في ذلك... قلت لها : لكنك عارية في الحمام تمامًا ، خفتُ أن تزجريني... قالت : يا لك من مخادع... ثم تابعتْ بصوتٍ ضعيف : أتعرف ، سأقول لك صراحةً ، أحيانًا أظن أنك تكره النساء أو تعزف عنهن ، ولكني عندما أتذكر ما أنجبته من أطفال ؛ كنت أبعد هذه الفكرة عن رأسي... قلت : أنتِ في حاجة إلى الراحة ، لا تتحدثي كثيرًا فأنت مرهقة...

قالت : ليس أجمل من أن أتحدث إليك حتى وإن كنتُ ضعيفة نتيجة المرض... قلت : أنتِ معافاة ، وليس بكِ من مرض ، يبدو أن الهواجس تنتابك لأن العملية التي أجريتِها كانت صعبة... قالت : أرجو أن أكون واهمة ، فأنا أشعر بضعف شديد... قلت : هل تشعرين بألم نتيجة السقطة ؟... قالت : بعض الشيء في جانبي... قلت : لا تتحركي وابقِ على وضعك في الفراش ، وسأكون إلى جانبك...

ذهبتُ إلى المطبخ وصببتُ لها كوبًا من القهوة الساخنة... لم تستطع أن تحمل كوب القهوة ، فسقيتها رشفة منها ، فابتلعتها بتلذذ ، ثم قالت : أروع قهوة شربتها ، لأنها من يدك... ابتسمتُ وقلت : ولكنها ليست المرة الأولى... قالت : إن مذاقها اليوم مختلف.

بعد أن شربت القهوة قالت : أريد أن نجلس سويًا في الصالة ، فقد مللت هذه الغرفة... أسندتها إلى كتفي وخرجنا سويًا ، لكنها توجعت قليلاً... قلت : هل تشعرين بألم ؟... قالت : بعض الشيء في جانبي اليمنى ، ثم قالت : هل حقيقة تبقى طيلة اليوم عندي ؟... قلت : أنا عند وعدي ، سأبقى اليوم وطيلة الليل أيضًا ، سأرعاكِ ، فإن احتجتِ إلى شيء أنفذه لك حالاً... قالت:

أتعرف، أنت تذكِّرني بشيء مرَّ بي ولكنه عكسيًا... قلت: كيف ذلك؟... قالت: عندما تزوجتُ الأول مرضتُ يومًا، وكان ذاك الزوج يضطهدني، كنت أقول له اعطني كوب الماء فيزجرني ويقول: الماء أمامك، لماذا لا تذهبين بنفسك لإحضار الكوب؟ أقول له إني ضعيفة، فكان يقول ما معناه: إن كيد النساء جميل عندما يكن جميلات أمَّا أنتِ فدميمة... قلت لها: يا الله هل أنتِ دميمة؟... قالت بعد أن ابتسمت، في نظره على الأقل... قالت: أما زوجي السوري فقد كان عطوفًا رحيمًا ويخدمني في مرضي كما أخدمه في مرضه، كنا سويًا أجمل زوجين، وكان الكثير من صديقاتي يحسدنني على ذلك، فما أن ألفظ كلمة واحدة حتى يفهم ما أعنيه فيقوم بتلبية طلبي حالاً، كان رحمه الله من أصحاب الأخلاق الكريمة التي لم أزل أتذكرها حتى اليوم... قلت: وأنا؟، هل ترينني مثله؟... قالت: أنت الأجمل والأروع والأنقى مذ عرفتُ أنني أُنثى مكتملة الأنوثة، فلم يكن أحدهما ممن ذكرت أحنّ قلبًا وأروع مثلاً كما أنت... قلت: لا تمدحينني كثيرًا، لأن ذلك يضرني... ضحكتْ: يضرك في ماذا؟... قلت: أرى نفسي فأطاوعها بأنني نقي، مع أنني لست كذلك... قالت: لا تقل هذا، أنت كما أراك أنا، ولست كما ترى نفسك.

عند الظهر اتصلت بها مارلين وقالت : أنا قادمة إليكِ... قالت لها : أرجو أن تستريحي قليلاً فقد أتعبتك معي ، إن وليد إلى جانبي... قالت لها مارلين : والدواء ؟ ، أتأخذينه بانتظام كما أمر الطبيب... قالت لها : أنا على ما يرام... قالت لها مارلين : ومع هذا سآتي إليكِ ولو لدقائق لكي أطمئن عليكِ... أجابت : حسنًا، أنا بانتظارك.

عندما جاءت إليها صديقتها حدَّثتها عن سقوطها أثناء الاستحمام ، فقالت لها : لِمَ لَمْ تتصلي بي فأقوم برعايتك ؟ لا يجوز أن تستحمي وحيدة... ثم استدركتْ : هل تأذيتِ ؟... قالت بعد أن ابتسمت : جاءني من ينقذني في اللحظة المناسبة... قالت مارلين : فرصة... وضحكت... فقلتُ لها ساخرًا : فعلاً ، فرصة في امرأة كاد أن يغمى عليها ، هل تظنينني وحشًا ؟.. قالت صديقتي : لو لم يكن هنا لقضيت ، لقد كان شهمًا فحملني إلى غرفتي ، ولم يفعل ذلك فحسب ، بل قام برعايتي طيلة الليل ، وعندما استفقتُ في الصباح كان ينام على كرسي بجانب سريري... ثم تابعت : بربكِ ، هل رأيتِ إنسانًا أحنّ قلبًا وأوفى من هذا الرجل... نظرتْ إليَّ مارلين نظرة استغراب وقالت : أنتم في الشرق عكس ما نسمع هنا ، فالإعلام هنا يصوِّركم على

أنكم وحوش تفترسون من يأويكم ويمد يده إليكم بالحُسنى... رأت على وجهي علامة استغراب، فقالت: آسفة لما قلت، لقد قلت: الإعلام، ولم أقل نحن كأمريكيين، فنحن نعرف نتيجة الاحتكاك بكم في هذه البلاد أنكم نوعٌ من الناس لا وجود لهم في هذا الزمان سوى في حكايات السلف... فكرت قليلاً وقلت: عن أي سلف تتحدثين؟، إن الحروب التي قامت بين بعضكم البعض ليندى لها الجبين... قالت مارلين: آسفة مرة ثانية، ثم لا تنسَ أن الحروب التي قامت في أمريكا قامت أيضًا في كل بلدان هذا العالم، في بعض الدول تمَّ التعتيم على هذه الحروب، وفي البعض الآخر كأمريكا ما تزال الآلة الإعلامية فيها تذكِّرنا دائمًا بما فعلناه ببعضنا البعض... قلت: دعونا من السياسة والتاريخ.

صمتنا جميعًا لدقائق، فقالت صديقتي: دعني أقول لك إننا لا نعرف الكثير عن بلدانكم، هل كنتم قُساة القلوب عبر تاريخكم... قلت: أعدتِنا إلى السياسة ثانية، إن البشر جميعًا في هذا العالم فيهم الذي يوافق وفيهم الذي يعارض، ونتيجة لذلك ربما وصل الأمر إلى امتشاق الأسلحة ليدافع كل منهم عن وجهة نظره، فهذا العالم موبوء بالظهور وحب النفس والتعالي، فالكل يريد أن يسود، وما حدث عندكم حدث أيضًا عندنا...

صمتنا جميعًا بعد هذا الحوار القصير... ومن ثم وقفت صديقتي ونظرت إلينا نظرة متفحصة وقالت : وليد ، لقد تذكرت شيئًا جاء إلى خاطري وأرجو أن تنفذه لي ، إذا ما تزوجنا أو حدث لنا أو لأحدنا مكروه أو افترقنا ، فيجب أن لا تكتب ما جرى في جريدتك... قلت : ولِمَ لا ؟... قالت : إنها أسرار يجب أن لا يطلع عليها أحد... قلت : إن ما يحدث لنا يحدث في كل زمان ومكان ، فلا ضير أن نكتب ما حدث أو يحدث... قالت بعد تفكير وقد رأيت على وجهها تجهمًا : حسنًا . لكن لا تذكر أسماء فيما تكتب ، أو استخدم أسماء مستعارة ، فيجب أن لا يعرفني الناس سواء عشتُ أو قضيتُ أثناء ما تكتب... قلت: لكِ ذلك، سيظل اسمك سِرًّا في داخلي لا أبوح به لأحد... ظهر على وجهها الارتياح وهمست بصوتٍ منخفض : لا أريد أن يعرف أحد بما جرى لي وخاصة مرضي... قلت : ولكن كل صديقاتك يعرفن ذلك... قالت : يظل الأمر في أضيق نطاق ، فلا بأس أن يعرف بعض الناس ، فأنا إنسانة أكره أن يلوك الناس سيرتي... قلت : هذا وعد مني ، لن أبوح باسمك حتى ولو قُطِعت إربًا ، سأكتب ما يمليه علي ضميري ، وسأنفذ وصيتك غير المكتوبة هذه... تنفستْ بارتياح.

(٢٢)

مضى الوقت... تورد وجه صديقتي وأصبح وضَّاءً، وبدا أنها تخلصت من آثار عملية كانت على درجة كبيرة من الخطورة... جلستُ وإياها يومًا نتسامر ليلاً، قلت لها: أتعرفين ما الذي جرى لك في أثناء العملية التي أجريت؟... قالت: نعم، أخبرني الطبيب بكل شيء، ولكني لا أريد أن أتحدث إليك بما كان، لا أريد لنفسي أن أستعيد ما حدث... قلت: أريد أن أعرف تفاصيل المرض وكل ما جرى... قالت: لِمَ؟... قلت: هناك طبيب عربي في نيويورك قرأت اسمه بالأمس في إحدى الصحف الأمريكية وهو خبير بالأمراض السرطانية، أريد أن استشيره في أمرك وما حدث لك ورأيه في مقبل الأيام من حياتك... قالت: لِمَ كل هذا الاهتمام في وقت أتناسى فيه ما جرى... قلت: يا سيدتي العزيزة، قرأتُ كثيرًا عن تلك الأمراض، لكني أريد أن اسأل مختصًا، ليس لأمرٍ مهم ولكنه الفضول الذي يجعلني أحافظ على حياتك مهما كان الثمن... قالت: حسنًا... صمتت قليلاً وبدا على وجهها العبوس وقالت: اكتشف طبيبي أن هناك ورمًا سرطانيًا في رأسي على الجهة اليُسرى، أعلمني بذلك فاسودت

الدنيا في وجهي ، ولكن الطبيب طمأنني أن الاختبارات التي أُجريت أثبتت أنه في بداية التكوين ، وأعلمني أيضًا أنهم يجرون الاختبارات علَّ السرطان يكون ذكرًا وليس أنثى... قلت لها : ما الذكر والأنثى في عملية السرطان هذه ؟... قالت : إن كان السرطان ذكرًا فإنه بعد استئصاله لا ينبت ثانية إلا ما ندر ، وإن كان أُنثى فإن الطب لا يستطيع استئصاله كُليًا ، بل يبقى بعض جذره وينبت بعد حين مرةً أخرى ، ويكون بحاجة إلى عملية أخرى ، وهكذا دواليك... قلت : وبعد ذلك ، هل تأكدتِ أن المرض ذكر أو أنثى ؟ قالت : للأسف كان أنثى ، ولكن الطبيب طمأنني بعد أن أجريت العملية على أنه ومجموعة الأطباء المشاركين قد استأصلوا كل جذوره ولا حاجة للقلق... قلت : أنت تعرفين كم أحبك ، ولا أريد أن أفقدك ، أريد أن نذهب إلى الطبيب الذي أشرت إليه في نيويورك لفحصك من جديد... قالت : ألا يعجبك أن في المستشفى عشرات الأطباء متخصصون بهذا المرض وكلهم أكَّدوا لي نجاح العملية واستئصال الورم... قلت : بل يعجبونني ، ولست طبيبًا لكي أحكم ، ولكني أريد التأكد ، وإني على استعداد إن كانت العملية تتطلب أن أدفع آلاف الدولارات فلن أتأخر عن ذلك... قالت : إنني أمتلك

تأمينًا يغطي كل احتياجاتي ، سواء كانت عملية أو مرضًا عارضًا... قلت : إذن فلِمَ الخوف من الفحص ثانية وثالثة أو حتى رابعة ؟ ، سيدتي ، أريد أن اتأكد أنكِ خالية من كل مرض يمكن أن يستوطن جسدك الجميل... ابتسمت وقالت : هل تغازلني ؟... قلت : نعم ، أغازلك ، ولو كانت أمك التي أنجبتك على قيد لحياة لغازلتها أيضًا لأنها أنجبت أحلى وأجمل وأروع وأحن وأطيب قلب لسيدة رأيتها في زماني... قامت إليَّ من فورها وضمتني إلى صدرها وسقطت دمعة من عينيها فقلت : أتبكين ؟... قالت : تصور ، لم أسمع هذه الكلمات طيلة عمري ، حتى زوجي الثاني الذي أمدحه لم يكن بمثل هذا الحنان الذي أرى، فليباركك الله ، أنت أعدت لي الأمل أن أظل على قيد الحياة لك وحدك دون غيرك ، وأقسم بالله لن ترى مني في مقبل الأيام سوى الراحة والهدوء والرفقة الطيبة والحسنة التي تجعلنا نعيش باقي عمرينا في سعادة وهناء ، أريدك لي لنفسي ؛ لي وحدي ، ولا أريد أحدًا أن يقاسمني فيك... قلت : إذن ، هل تأذنين بأن نتصل بالطبيب في نيويورك فإني على الأقل أفهم لُغته بصورة جيدة وأستطيع أن أفهم ماهية المرض ، أمَّا عندما يتحدث الأطباء الأمريكيون فإني أفهم أشياءً ولا أفهم أشياءً كثيرة ،

دعيني أقوم بذلك ، أرجوكِ... قالت : كما ترغب وتشاء ، لن أرفض لك أمرًا تريده...

في الأسبوع الذي تلا اتصلتُ بالطبيب العربي في نيويورك ، أعطتني استعلاماته موعدًا للمقابلة ، كانت صديقتي قد أحضرت العديد من الأوراق ، قلتُ لها : هل ترافقينني؟... قالت : لا أريد أن أرى مستشفى أو طبيبًا جديدًا ، اذهب وحيدًا وأخبرني بالنتيجة... قلت : أنتِ وشأنك.

سافرتُ إلى نيويورك لحضور موعدي مع الطبيب ، كان كهلاً يتجاوز عمره السبعين أو الثمانين ، لكنه كان لطيفا جدًا ، يتحدث العربية بصعوبة... رأى الأوراق كلها ، وقال لي إنه يمارس مهنة الطب في أمريكا منذ خمسٍ وأربعين سنة... بدأ في قراءة التقارير ، وكان وجهه يتقلَّب بين قبولٍ ورضا وغضب في الوقت نفسه ، مما جعلني أشكِّل عدة آراء دون أن يتحدث إليَّ.. وأخيرًا بدا أنه قرأ الكثير من الأوراق التي كانت بين يديه ، فقال بعد أن نظر إلى وجهي وتفرَّسه : آسف يا سيدي ، لا أستطيع قبول هذه الحالة... قلت : ولِمَ لا ؟... قال : عليها مراجعة المستشفى أولاً وهو يحيلها إلي ، ولا أخفي عليك يبدو أن المرض ليس بالسهولة التي تتصور... قلت : أنا لم أقل أنه سهل ، على

العكس، كنت على يقين أن المرض الذي استوطن في المرأة..... قاطعني : للمناسبة ، هل هي زوجتك ؟... قلت كاذبًا : نعم ، تزوجنا حديثًا ، لم يمضِ على زواجنا أكثر من شهرين... قال : أعانكما الله... ثم تابع : عليها الذهاب إلى المستشفى ، فلا بأس في العملية التي أُجريت لها ، يبدو من التقارير أنها كانت جيدة وناجحة ، ولكني بحاجة إلى تصوير جديد للمخ لمعرفة نتائج العملية بعد مرور أكثر من شهرين على إجرائها... قلت : إذن سآخذ موعدًا جديدًا بعد زيارتها المستشفى... قال : أرجو ذلك ، ثم نظر إليَّ وأنا على استعداد للخروج : لا تنسَ أن يكون ذلك سريعًا... قلت : لك ذلك.

قلقتُ جدًا من الرأي الذي أبداه الدكتور ، فقد رأيت تقلبات وجهه التي كانت تدلني على أن الأمر خطير وليس سهلاً...

لم أشأ أن أخبرها بكل تفاصيل اللقاء ، يكفي أن أقول لها إن الطبيب بحاجة إلى معلومات أكثر ويريد مراجعة المستشفى الذي يعمل فيه لإحالتك إليه.

استقبلتني بوجه مرح ، فقلت على الفور : صحتك جيدة يا سيدتي..... قاطعتني : ألم أقل لك إن الأطباء طمأنوني عندما

خرجت من المستشفى... قلت : ولكن ذلك كان قبل شهرين على الأقل ، لقد تحدثت مع الطبيب العربي فقال لي كان عليها أن تذهب للفحص الطبي مرة كل عشرة أيام بعد انتهاء العملية للتأكد من إزالة واستئصال المرض بكامله... قالت : ليس بي من شيء ، ولا أشعر بالتعب أو الإرهاق أو الوجع ، أنا سليمة كما ترى... وقامت على طولها ودارت بجسدها يمينًا ويسارًا... ثم تابعتْ : هؤلاء الأطباء يضخِّمون الأمور دائمًا... فإن كان بك مرض خفيف أوهموك بأنك تعاني وأنك بحاجة إلى عملية جراحية وإن كان بك رشح أو برد فلا بأس من أن تراجع الطبيب مرات عديدة لكي يعطيك دواءً يمكن أن تأخذه من الرفِّ في إحدى الصيدليات فهو متاح حتى دون وصفة طبية... قلت لها : هل طلب منكِ الأطباء في المستشفى أن تفحصي ثانيةً... سكتتْ ، وطال صمتها... قالت : نعم ، طلبوا مني أن أذهب للمستشفى مرة كل أسبوعين ، ولكني لم أشأ ذلك لأني لا أشعر بالمرض أو الوجع ، أنا طبيعية كما ترى... قلت لها : لقد ارتكبتِ حماقة كبيرة ، كان يجب عليك أن تراعي قول الأطباء... قالت : لقد اتصلوا من المستشفى مرات عديدة ، وكنت أقول لهم إن مَنْ تطلبونها مسافرة وستعود بعد شهر من سفرها ، فقد مللتُ

التمدد على سرير ليس فيه من رائحة سوى الدواء... قلت : دعينا نذهب إلى المستشفى في نيويورك ، وحالاً ، هناك قسم للطوارئ يمكن أن يستقبلنا دون اتصال مسبق.

في ذلك المساء لم أستطع النوم ، فكرت كثيرًا : ما الذي جعلني أتبنى تلك السيدة ؟ ، إن كانت قد آوتني واستقبلتني يكفي أن أعطيها بعض ما أعطتنِه من معروف... وبعد تفكيرٍ طويل ، اكتشفتُ أن علاقتي بتلك السيدة لم تكن لهذا السبب فحسب ، بل كانت لأشياءٍ عظيمة قدَّمتها لي سواء كانت لأفكار أو لأعمال أو لمساعدة في استخراج أوراق أو لاستدانة النقود منها أو إيوائي في بيتها ، ثم لُمتُ نفسي على أفكاري السوداء التي أتتني ، قلت في نفسي : سأتابع موضوع مرضها حتى الانتهاء منه.

كان المساء قد ألقى بظلاله بغلالة سوداء في الأفق يعلوها الشفق الأحمر على أطراف السماء ، نظرتُ إلى غرفتها فإذا بها تغطُّ في نومٍ عميق ، ولم تزل تباشير الظلام لم تحل بعد...

تسللت خارجًا وتركت لها ورقة صغيرة تقول :

– سأعود اليك... الليلة.

(٢٣)

كانت المقاهي والمطاعم على الشارع الرئيس في مدينة باترسون قد بدأت بالتكاثر ، وبدأنا نرى المحجبات يمررن بالشوارع الرئيسة والفرعية زرافات ووحدانا ، وأصبح الوافد إلى المدينة يستمع إلى اللغة العربية كعادة وكأنه في الوطن ، مما يوحي بأن الجالية العربية كانت تكبر... أمضيتُ بعض الوقت مساءً في مقهى ، ومن ثم ذهبت إلى مطعم أُنشئ حديثًا فأخذتُ منه عشاءً لاثنين وتوجهت إلى منْزل صديقتي...

كانت للتو قد نهضت من نومها ، والساعة تشير إلى العاشرة مساءً ، أعددتُ المائدة بنفسي وأحضرتُ الأطباق وملأتها بالطعام الذي أحضرته... اشتمتْ رائحة الطبخ فهرعت إليَّ وقالت : دعني أرتِّب طاولة العشاء بدلاً منك ، أنت تضع الملاعق والسكاكين والأطباق كلها فوق بعضها البعض... أتدري ، أنت فوضوي... قلت لها : أعترف بذلك ، ولكني في النهاية أعرف أين تقع الملعقة والشوكة والسكين والطبق ، فهذا سهل... ضحكتْ وقالت : يا لك من مبرِّر لكل شيء مهما كان تافهًا... قلت : وأنتِ ، يا لكِ من جادة في كل شيء حتى في ترتيب

الأطباق... ضحكنا... ومالت إليَّ برأسها فطبعتُ قبلة على رأسها، ويبدو أنني ضغطت على الشعر فانسحبتْ من بين يدي متأوهة وكأنما قرصتها نحلة فانزاحت إلى كرسي وجلست عليه قائلة: قد أوجعتني، لقد شعرت بأن هناك جرحًا غائرًا في رأسي عندما قبَّلتني... قلتُ لها: أريني موضع القبلة... مدَّت لي رأسها فرأيتُ أن هناك فرقًا في الشعر، إذ كانت العديد من الشعيرات قد ذهبت وظهر الجلد من تحتها، صحيح أنها كانت صغيرة الحجم، ولكن ذلك ينُبئ بشيءٍ خطير قرأت عنه.

لم أخبرها بظنوني تلك الليلة، ولكني صبرت حتى جاء الصباح واستفاقت من نومها، فإذا بها بعض الغثيان... قلت لها: الآن نذهب إلى الطبيب في نيويورك... ردَّت عليَّ وكان لسانها ثقيلاً بعض الشيء، كأنما تفتِّش عن الكلمات... قلتُ فزِعًا: ما بكِ؟. قالت: لا شيء، أشعر بأن هنالك حصوة تحت لساني فلا أستطيع أن أحرِّكه بسهولة عندما أتحدث، ثم تابعتْ: لن أذهب للطبيب، يكفي ما عانيته في المستشفى هنا... قلت: من مصلحتكِ أن تذهبي، واليوم، ليس غدًا... قالت: هل تلحظ شيئًا؟... قلت: أنا لستُ طبيبًا، ولكني أريد أن أتأكد من بعض ظنون قرأتها عن حالتك، ولا ينسحب الأمر على كل الحالات

طبعًا ، وربما كانت ظنوني خائبة ، وأرجو ذلك... قالت : أنت تخيفني... قلت : قبل أن أخيفك فإني أخيف نفسي ، لكني أعتقد أن لا شيء هناك ، ربما أنتِ مرهقة... قالت : معك حق ، فإن نومي كان قلقًا.

عند الصبح أحضرتُ الفطور ووضعته في بعض الأطباق... دعوتها فقالت : ليس لي رغبة في الطعام ، أريد بعض الشاي أو القهوة... قلت لها : لا تتحركي ، ابقِ هنا عند المائدة وسوف أقوم بإحضار ما تطلبين... جلستْ... قمتُ وأحضرتُ لها بعض القهوة ، وبدأنا نأكل سويًا... كنت أرى وجهها أثناء الطعام يتشكَّل كأنما هو في غيمة في أيام الصيف تأتي وتذهب دون أن تترك أثرًا بعد ذهابها... حزنتُ وقلت : بعد أن نستكمل فطورنا سوف نذهب إلى نيويورك... قالت : لن أذهب ، سوف أعاندك للمرة الأولى ، إن موتي أهون عندي من أن أذهب لمستشفى أرقد فيه لأشهر أو حتى أيام ، دعني أعيش بقية أيامي دون مشارط ودون أدوية ، لقد قرفتُ من هذه الحياة... قلت لها حزينًا : يا سيدتي ، أنتِ لا تزالين في زهرة العمر ، سنك يقول إن أجمل أيام العمر هي في المنتصف ، وأنتِ لا تبدين أنكِ في منتصف العمر ، بل تظهرين وكأنك في منتصف العشرينات... ابتسمتْ ، ومن ثم

ضحكتْ، قالت: هل تضحك علي يا رجل؟، لقد أشرفت على الخمسين... قلت : كلا ، أنتِ في الثامنة والأربعين وشهرين وعدة أيام فقط... قالت : وتحسبها بالسنين والشهور والأيام، يا لك من رجل ... طأطأتُ رأسي خجلاً وقلت: إني أعدُّ أيامي في أمريكا بعدد الأيام التي أمضيتها وأنا أعرفك، فلا حياة لي دون أن أراكِ كل يوم... قالت بعد أن سرحت لدقائق: أتعرف، إنني أفكِّر دائمًا بكيفية تعرفي إليك، هل كانت صدفة أم مخطَّطة من الرب لكي نلتقي؟... قلت: لا شيء يحدث إلا بأمر الله، ربما لم تكن مخططة منا، ولكنها مخططة منه سبحانه... قالت: لأول مرة أراك وقد لفعك الإيمان حتى قمة رأسك... قلت: وهل كنتِ تعتقدين أنني غير مؤمن... قالت: كلا، ولكني لم أكن أعتقد أنك ترمي حِملك على الله في هذه الأيام... قلت: هو القادر على أن يجعل الشفاء حليفك ان أراد، وهو الذي منه وله كل شيء... قالت بعد أن اغرورقت عيناها بالدمع: وهل تجدني مريضة؟... قلت: المرض حدث عارض، يذهب إن تداوى الإنسان، فقد خلق الله الداء والدواء... قالت: على رسلك، لا أريد أن أفكِّر كثيرًا في مرضي، فقد ذهبت إلى المستشفى وأجريت عملية كانت ناجحة في رأي الأطباء...

قلت: ولكنك تشعرين بالتوعك... قالت: إنها آثار العملية، فلم تكن سهلة، بعد أيام ستراني على ما يرام... قلت: أرجو ذلك.

لم تشأ أن تذهب إلى نيويورك رغم إلحاحي... هاتفتُ صديقتها مارلين وأبديتُ لها مخاوفي... قالت: هل أنت متأكد من وجوب رؤية الطبيب لها؟... قلت: إنها عنيدة وترفض ذلك، مع أنني متأكد تمامًا أنها يجب أن تذهب للطبيب، وفورًا، هذا إضافة إلى أنها لم تكن ترد على المكالمات التي تأتيها من المستشفى ومن طبيبها الذي أجرى العملية بأن تفحص نفسها كل عدة أيام... قالت: لم تقل لي ذلك... قلت: كانت تخفيه حتى عني.

في المساء جاءت مارلين إلى المنْزل... حاولتْ إقناعها بوجوب عرضها على الطبيب وقالت: أنا أعرف أنكِ في صحة ليستْ سيئة، ولكن العرض على الطبيب يمكن أن يطمئننا جميعًا... قالت: لقد سئِمتُ الأطباء والمرض، لا أريد الذهاب حتى ولو كان فيه موتي... لم تقتنع بالذهاب...

وفي غضون أيام عندما زرتُها لاحقًا، رأيتُ الاصفرار بادٍ على وجهها... ورغمًا عنها حملتها إلى الطبيب في المستشفى الذي عُولجت فيه... تركتها هناك للفحوصات، وعدت إلى عملي أنجزه.

(٢٤)

هاتفتُها عند المساء... قالت لي إنهم أخذوا عينات من عدة أماكن في جسدها وخاصةً في منطقة العنق والرأس، ولم يتركوا شيئًا في جسدي دون تصويره... وتابعتْ: إن نتيجة الفحوصات سوف تظهر هذه الليلة... قلت: عليكِ أن تنفذي تعليمات الطبيب حرفيًا، يجب أن تأخذي دواءك بانتظام، هاتفيني عندما تحتاجين لي، ولا تترددي في الاتصال بمارلين إذا كنتُ خارج عملي ولا أستطيع الوصول للهاتف... قالت وقد خِلتها تبتسم: أمرك يا سيدي، وتابعتْ: هل أنا في مهمة عسكرية لكي تلقي علي هذه الأوامر المتتابعة... قلت: وأكثر من ذلك، يجب أن تضعي عقلك في رأسك وتفكِّري في نفسك وليس أي شيء آخر... قالت: حتى ولا أنت؟... قلت: حتى ولا أنا... سمعتُ ضحكتها على الهاتف... وهكذا انتهت المكالمة.

بعد ساعة من مكالمتي لها اتصلت بي مارلين وقالت: أريدك أن تأتي إلى بيتها، فقد طلبتْ بعض حاجيات من البيت وأعرف أن مفتاح شقتها معك... قلت: أنا الآن في نيويورك، وسوف أكون عندك بعد ساعة... قالت: ماذا تفعل في نيويورك؟... قلت:

الجريدة في المطبعة، وسأظل هنا لنصف ساعة على الأكثر ومن ثم أعود... وتابعتُ حديثي : ما الأغراض التي طلبتها ؟... سمعت ضحكتها على الهاتف وقالت : أتدري، لقد أصابها الخبال، إنها تطلب صورتك وتقول إنها تتفاءل بها... قلت : أفي مثل هذا الوقت يفيد الهزل ؟!... قالت : هي من تطلب... قلت : أنا لا أذكر أن عندها صورة لي.. قالت : بل هناك صورة تعتز بها وهي تحت مخدتها دومًا... ضحكتُ وقلتُ : هذه امرأة تهز كياني كلما فعلت شيئًا سواءً كان مهمًا أم غير ذلك، ماذا تفيد الصورة في مثل حالتها ؟... قالت : فلنطاوعها، أنا متأكدة أنها تعاني، فقد كان صوتها ضعيفًا عندما هاتفتني... قلت : على أية حال الوقت متأخر ولن يسمحوا لنا بالزيارة، سأكون إلى جانبها عند الصباح وسأحاول مهاتفتها عندما أعود من نيويورك... قالت : إذن نلتقي بعد ساعة في شقتها.

ولجنا إلى الشقة فقالت مارلين : تصور، إنها تطلب بعض المناشف وتقول إنها لا تستطيع استخدام مناشف المستشفى... قلت : دعيها تطلب ما تشاء... وتابعتُ : وماذا بعد؟، قالت : صورتك وصورة ابنها وخطيبته... قلت : ألم تطلب طعامًا أو أي شيء آخر... قالت : لا، هذا كل ما طلبته.

غادرت مارلين، وتركنا الشقة سويًا... لم يكن في منْزلي هاتف، بل كان فقط في مكتبي، فكَّرتُ أنها يمكن أن تطلب شيئًا مهمًا فقلتُ لنفسي: أنام في المكتب هذه الليلة... وقد كان حدسي في مكانه، إذ عند الساعة الرابعة صباحًا سمعت رنين الهاتف، أسرعت إليه فإذا هي... قالت بصوت ضعيف: لقد كان حدسك في موضعه، قال الطبيب إنني بحاجة إلى عملية أخرى، وسيجرونها مبكرًا في هذا اليوم... قلتُ لها حزينًا: هذا نتيجة استهتارك بعدم التقدم للفحص كما قالوا لكِ... قالت: لا يهمني شيء في هذه الدنيا، لقد تعبتُ... قلتُ: أعانك الله على ما أنتِ فيه، عند الساعة التاسعة عندما تفتح الزيارات سأكون إلى جانبك... قالت: لا تنسَ أن تهاتف مارلين هذا الصباح، أريدكما معًا... قلت: كما تشائين.

التقينا سويًا أنا ومارلين عند الساعة الثامنة والنصف صباحًا في موقف السيارات بالمستشفى، تحدثنا طويلاً في سيارتها، أبدتْ رأيها بأنها يجب أن تظل في المستشفى لأيامٍ طويلة حتى يتأكد الأطباء أن المرض قد زال عنها نهائيًا... قلت: ولكنهم لا يحتفظون بالمريض مدة طويلة إذا عولج من المرض، إذ ربما كان هناك من هو أولى بالرعاية ممن رعاه المستشفى وأعطاه الدواء

اللازم... قالت : ولكن يبدو أن حالتها خطرة... قلت : حتى ولو كان ذلك كذلك ، إن إدارة المستشفى يمكن أن تعيِّن لها ممرضة في بيتها لإعطائها الدواء ، هذا إن لم تكن قادرة على أخذه وحدها ، إن التأمين الصحي الذي تمتلكه يمكِّنها من ذلك... تذكرتُ شيئًا مهمًا ، فقلت لمارلين : ماذا بشأن عملها ؟... قالت : لقد أخذتْ إجازة طويلة من عملها ، وهناك من يزورها من الموظفين كما قالت لي... وتابعت مارلين : لا أخفيك أنها تعاني من حالة مادية سيئة ، أرجو أن تدعمها قليلاً... قلت : أنا لا أقصِّر في دعمها ، أعطيها كل ما تطلبه وما لا تطلبه ... قالت : لم تدفع أجرها الشهرية لشقتها... قلت : سأدفعها اليوم...

بلغتْ الساعة التاسعة ، فذهبنا سويًا أنا ومارلين إليها... قالت لنا موظفة الاستعلامات إن المريضة تحت العملية... قلت لها : ألا نستطيع انتظارها في الصالة قرب غرفة العمليات ؟... قالت : ما الفائدة ؟ ، لن تستفيق من العملية إلا بعد ساعتين على الأقل... قلت لمارلين : ما رأيك ؟... قالت : إذن فلنذهب ولنأتي بعد الظهر... قلت : هذا حسن.

دفعت أُجرة الشقة ، ومن ثم رأيت الفواتير العائدة للكهرباء وبعض فواتير متفرقة ، فقمت بإرسال شيكات لمصادرها...

كانت الساعة قد جاوزت الثالثة بعد الظهر... اتصلت بمارلين كي نلتقي في المستشفى... قالت : سأكون هناك خلال نصف ساعة... وعندما التقينا وذهبنا إلى غرفتها قالت لنا الممرضة : زيارتكما فقط لدقائق، أرجو أن تراعيا ذلك... قلت : ما الخبر ؟ أهي في خطر ؟... قالت : لا أعرف ، طبيبها عنده كافة المعلومات... قل : كيف نستطيع أن نقابله ؟... قالت : إنه يجري عملية أخرى وسينتهي منها خلال أقل من ساعة ، بإمكانك مقابلته...

ذهبنا إليها سويًا ، كانت مصفرة لا تستطيع الكلام ، كانت الممرضة إلى جانبها تعطيها بعض حبات من الدواء... عندما رأتنا كانت عيناها غائمتين، وصوتها ضعيف للغاية... قالت : جئتما ؟ قلت لها : لا تتحدثي، استريحي من عناء العملية... قالت : ليتني مِتُّ فأنا لا أتحمل كل هذه الضغوط من عملية إلى أخرى في خلال مدة قصيرة... قالت مارلين : يجب أن تحتملي...

قالت لنا الممرضة : يجب أن تخرجا ، فالطبيب آتٍ بعد قليل، إنه يدور على المرضى وقد اقترب من غرفتها...

في الصالة أمام غرفتها قابلنا الطبيب ، سألناه فقال : لا أُخفي

عليكما أن حالتها سيئة جدًا... لقد غمر السرطان معظم رأسها ونبت بصورة عجيبة، وكل ذلك لأنها أهملت لقائي عندما كان المستشفى يهاتفها للفحوصات... قلت: هل من وسيلة لنقلها إلى مستشفى متخصص؟... قال: كل التخصصات موجودة في هذا المستشفى وليس هناك إلا المتخصصون... قالت مارلين: هل نستطيع رؤيتها ثانية؟... لم يرفض الطبيب وقال: دعوني أراها الآن وبإمكانكما الجلوس في الصالة القريبة حتى أخرج، ومن ثم يمكنكما أخذ الوقت الكافي في الزيارة... قلت للطبيب: هل عدم تحديد مدة الزيارة يعني أنها في حالة حرجة؟... قال: نعم... قلت: ماذا تتوقع.... قال: أرجو لها الصحة، ادع لها.

(٢٥)

كان الصيف يلفُّ هامته على الدنيا والأشجار مورقة خضراء، يأتي النسيم تِباعًا فتهبُّ لفحاتٍ خفيفة منه على وجهي، فأستفيق حينًا وأحاول النوم أخرى... قضيتُ الليل في سيارتي أستقبل الهواء من نافذة مفتوحة فيها... توقفتُ طويلاً قُرب المستشفى لا أبعد عنه سوى خطوات بانتظار الزيارة... قلقتُ لأن موظفة الاستعلامات لم تسمح لي بأن أهاتفها بعد أن جنَّ الليل... سألتها: لِمَ؟... قالت: لأن الطبيب منعها من التحدث... قلت: أهي تعبة إلى هذا الحد؟ قالت: لا أدري، لدي تعليمات أنفِّذها.

وهكذا سِرتُ إلى المستشفى عند منتصف ليل صيفي نسيمه مثل طراوة الياسمين التي تفوح من أشجاره المتكاثفة بالزهر الأبيض رائحةً زكية... كنتُ أنظرُ إلى المستشفى عن بُعد وأنا قلق بانتظار الساعة التاسعة... اجتازتني سيارة مسرعة وأنا أقف على حافة الشارع، لمحتُ فيها مارلين، لحقت بها فوضعت سيارتها في المرآب، وكانت على عجل للنزُول من سيارتها... عندما رأتني قالت: أأنت هنا؟ ألم يتصل بك الطبيب؟... قلت: كيف يتصل بي وقد أمضيتُ الليل هنا في سيارتي لا أدري ما الذي يجري،

هل هناك أمرٌ هام؟... قالت : لا أدري، لقد طلبني الطبيب على عجل ، ومن المؤكد أنهم اتصلوا بك ولكنك لم تكن قُرب هاتفك... قلتُ وقد ازداد قلقي: ألم يقل لكِ شيئًا سوى أن تأتيَ؟ قالت : قال لي عليكِ بسرعة المجيء ، هناك أمر هام يجب أن تعرفيه... وهكذا أسرعتُ إلى هنا.

عندما وصلنا إلى الاستعلامات نظرتْ الموظفة إلى وجهينا فرأينا فيها الأسى، لم تقل شيئًا، أعطت كلاً منا ورقة الزيارة، فصعدنا.

في المصعد قلتُ لمارلين : ألم ترِ وجه الموظفة عندما قابلتنا في الصالة؟... قالت : لم أنتبه لشيء غير عادي... قلت : هناك أمر جلل حدث ، هواجسي تقول لي إن مكروهًا أصاب صديقتي... قالت : لا تكن متشائمًا، ربما كانت تعبة فقط... قلت: لو كانت تعبة ما استدعوكِ لأن تأتيَ بالسرعة الممكنة... قالت : سنعلم بالذي يجري.

تلك كانت المرة الأولى التي يستدعينا فيها الطبيب إلى غرفته الخاصة بالمستشفى... قال لنا والأسى على وجهه : أنا آسف ، أرجو أن تتماسكا، لقد ذهبت (.....) إلى رحمة الله...

صرختْ مارلين... أمَّا أنا فقد أصابني الذهول، لم أستطع الكلام،

توقفت الكلمات في حلقي كأنما هي كومة من الحصى تخزني فلا أستطيع إلا أن أركِّز نظري في فضاء الغرفة كمن أصابه العمى... تابعت مارلين وهي تبكي وتنوح... لكني لم أفهم من كلماتها التي كانت تهذي بها شيئًا...

وقف الطبيب بباب الغرفة وأشار لممرضة أن تأتي ، قال لنا : سأذهب في أمر لعدة دقائق وسأعود حالاً...

دخلت الممرضة إلى الغرفة وأخذت تخفِّف عن مارلين... وفجأة انفجرتُ أنا بالبكاء كأنما كان نهرًا محتبسًا وقد فلت عقاله... لم تقل الممرضة شيئًا ، وتركتنا على حالنا من الذهول نقول ما نشاء ونهذي كما نريد... وبعد دقائق جاء الطبيب وقال : أنا آسف ، لم يحتمل جسدها عمليتين في شهرين متتابعين ، ولكننا كنا مضطرين لأن نقوم بها بناءً على موافقتها ، وقد قلت لها إن نسبة النجاح ضئيلة ، لكنها أصرَّت على أن نقوم بالعملية ، ولقد تعافت في الساعات الأولى ما بعد العملية ، ولكنها عادت فانتكست ولم تفلح محاولاتنا في إنقاذها... ثم مدَّ يده إلى دُرج مكتبه وأخرج لنا توقيعًا لها على كتاب صادر من المستشفى... قال : بإمكانكم أخذ نسخة منه للتأكد.

لم ندرِ كم مضى من الوقت ونحن على تلك الحال، ولم يطلب منا أحد المغادرة، كنتُ أنظر إلى عيون الأطباء والممرضات بل وحتى المرضى فأراها حزينة ، أو ربما لم يكن ذلك إلا وهمًا... رأينا العتمة قد بدأت من شبابيك المستشفى... هدأت مارلين قليلاً... قلت لها والأسى يغمرني : علينا الذهاب ، وغدًا سنأتي لإحضار جثمانها لدفنه... قالت : سنرسله إلى الكنيسة أولاً للصلاة ، وبعدها إلى مغسلة الموتى، ومن ثم تتم عملية الدفن... قالت لي : هل تستطيع مكالمة ابنها وإخباره بالأمر؟... قلت : لا أستطيع أن ألفظ حتى الكلمات بأنها ماتت... قالت : إذن اترك الأمر لي فسأبلغه بذلك.

غادرنا المستشفى وكأنما يحمل أحدنا أثقالا لا قبل له بها... ذهب كلٌّ في طريقه...

لم أشأ أن أذهب إلى بيتها لأن الحزن يمكن أن يخنقني... توجهتُ سريعًا إلى بيت أخي ، وهناك قلت لهم ما جرى... بكوا جميعًا ، وأخذوا يذكرون مآثرها ، لكني لم أكن لأسمع منهم شيئًا سوى النحيب.

عند الصباح التقينا أنا ومارلين في مرآب المستشفى... ناولتنا

إحدى الممرضات بعض مقتنياتها وفيها بعض الأوراق ، ولم نشأ أن نفتحها في حينها... قامت سيارة إسعاف بناءً على أوامر الطبيب بنقلها إلى الكنيسة ، وهناك تمَّت الصلاة عليها... ثم نقلتها نفس سيارة الإسعاف إلى مغسلة الموتى ، ولم يكن ذلك ملزمًا ، ولكن الطبيب أمر السائق بأن يبقى معنا حتى نهاية المراسيم.

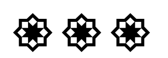
عند القبر قلتُ لمارلين : هل تفقدتِ مقتنياتها ؟... قالت : كلا... قلت : إذن نراها سويًا ، إذ ربما أرادت توصية شيء يتعلق بابنها... قالت : معك حق...

عند المساء وبعد الدفن التقينا ، قرأنا بعض ملاحظات كانت تكتبها وهي في المستشفى ، كانت ربما تعرف نهايتها ، لذا فقد كتبتْ رسالة اعتذار قصيرة لي ، قالت في نهايتها : لم أستطع أن أُسعدك وكان ذلك رغمًا عني ، فسامحني... وهناك ورقة أخرى مشبكة بشيك قيمته ألف دولار مكتوب باسمي وتقول في ورقته المرفقة : إذا مِتُ فهذا ثمن كفني... وخلتها تبتسم وهي تكتب : أمَّا إذا لم أمت فهو هدية مني لأصغر أولادك.

ما زلتُ رغم مرور السنين أقف عند قبرها تخنقني العبرات... وكنت أتخيل أني أحادثها فتحدِّثني وتجيبني على ما أوجِّهه لها من الأسئلة...

لم تنقطع الزهور عن قبرها شهرًا واحدًا، كنتُ أذهب إلى القبر فأرى أوراق أشجار الكينا معشِّشة علي حوافه... أنظِّفه... أدعو لها بالرحمة... ثم انسل خارجًا من المقبرة وأنا أردِّد كلمات كانت تقولها:

لا تنسني يومًا، فلم أحبب إنسانًا في هذا الكون مثلما أحببتك.



المؤلف في سطور

- رئيس تحريرجريدة (صوت العروبة) التي تصدر أسبوعيًا في الولايات المتحده الأمريكية منذ أكثر من ثلاثين عامًا باللغة العربية.
- عمل محررًا صحافيًا في لبنان وفلسطين والأردن.
- كتب في معظم الصحف والمجلات العربية، في: مصر، لبنان، الكويت، العراق، الأردن، ليبيا، الصحافة العربية في لندن.

- الإصدارات :

– أوراق من مفكرة مناضل: قصص قصيرة. دار الحرية، بغداد
– خنّاس المخيم: قصص قصيرة. دار العودة، بيروت
– نقوش على جدران الزنزانة: قصص قصيرة. دار العودة، بيروت
– عزف منفرد على قماش الخيمة: قصص قصيرة. دار الحرية، بغداد
– الصعاليك: رواية. الولايات المتحده الأمريكية
– البّراق: قصص قصيرة. الولايات المتحده الأمريكية
– وثيقة سفر فلسطينية: مسرحية. الإعلام الموحد
– غروب في مطلع الشمس: دار نور للنشر، ألمانيا
– صلي ع النبي يا جورج: رواية . شمس للنشر والإعلام، القاهرة
– رحلتي إلى أمريكا: رواية . شمس للنشر والإعلام، القاهرة

- الموقع الإلكتروني : www.arabvoice.com
- البريد الإلكتروني : wrabah@arabvoice.com



(+2) 02 27238004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net